حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

مدرسة الأرامل

٦

(برنارد شو)

حلمي مراد يقدم :

روائع المسرح العالمي

مدرسة الأرامل

ومسرحيات أخرى

١ ــ مدرسة الأرامل	جان كوكتو
٢ ــ رجل الأقدار	برنارد شو
٣ ــ الهاربة من الفضيحة	إبسن
٤ ــ كاليجولا	ألبير كامي
٥ ــ جوديث	جان جيرودو

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

مدرسة الأرامل!

قصة تمثيلية للأديب الفرنسي المعاصر

جان كوكتو

عضو الأكاديمية الفرنسية

هذه المدرسة

● طالعتنا البرقيات منذ شهور بالعيد المئوى لمولد الأديب الفرنسى المعاصر « جان كوكتو » عضو (الأكاديمية الفرنسية) — أو مجمع « الخالدين » ، كما يطلقون عليه — وقد رأيت لهذه المناسبة أن أقدم لك فى هذا العدد نموذجا من أدب « كوكتو » ، هو هذه المسرحية الطريفة — ذات الفصل الواحد — التى اقتبسها عن قصة للأديب الرومانى « بترون » Pétrone ، الذى عاش فى عهد « نيرون » حياة حافلة بالمتع وألوان الترف .. ثم مات منتحرا بقطع شرايينه عام ٦٦ م ، على أثر اتهامه فى مؤامرة ضد الإمبراطور . وقد اشتهر « بترون » بمؤلفه فى وصف أخلاق الرومان ومباذلهم فى القرن الأول الميلادى .

وقد راق لكوكتو أن يبعث إلى الحياة بقلمه الساحر صورة من صور ذلك المجتمع القديم .. وقد اتخذ مكانا لحوادثها « مقبرة » مدينة « إيفيز » ، وهى إحدى مدن اليونان التى اندثرت — وكانت تقع على بحر « إيجه » — وقد اشتهرت بمعبد أقيم فيها للإلٰهة « ديانا » ، وكان معدودا من « عجائب الدنيا السبع » !

فتعال معى ندخل — فى ركاب الكاتب « الخالد » « جان كوكتو » — مدرسة الأرامل .. لنتلقى فيها درسا فى وفاء الزوجات ، وخداع الأزواج .. أو العكس !

● قبر فاخر متسع فى مقبرة « إيفيز » ، به نافذة مربعة تدخل منها أشعة القمر ، وباب يفضى إلى حديقة ملأى بأزهار .. وبين النافذة والباب جثة محنطة واقفة على قدميها داخل صندوق صغير من الزجاج

وجهها نحو فناء القبر .. وإلى اليسار فراش ومنضدة ومقاعد ، وعلى مائدة موقد صغير ، ومصباح ، و « كعكة الميت » التقليدية ..

المؤلف : جان كوكتو

المشهد الأول

الوصيفة : سيدتى ..

الأرملة : إذا كنت تنوين أن تكررى « الموال » ذاته ، فخير لك أن تصمتى !

الوصيفة : لو كان سيدى حيا لكان أول من نصحك بـ .... .

الأرملة : (مقاطعة) زوجى قد مات ، والكلمة النافذة صارت الآن كلمتى ..

الوصيفة : أثناء النهار كانت لدى بقية من شجاعة ، ولكن الليل قد أقبل .. ونحن امرأتان وحيدتان مع ..

الأرملة : مع ماذا ؟

الوصيفة : مع سيدى .. لكم كان طيبا وعادلا ، لكنه قد مات . والموتى تعود أشباحهم إلى الحياة فى المقابر أحيانا !

الأرملة : لا تكونى حمقاء .. لن يستطيع أن يلحق بك أى أذى .. إنى أحب البقاء بجواره ، إنه يعيد إلى نفسى شيئا من الطمأنينة

كلما نظرت إلى وجهه الحبيب ..

الوصيفة: لكم تغير سيدى منذ حنطوه .. إن هؤلاء اليهود يسرقون نقود الأغنياء بهذه البدعة !

الأرملة : قد لا تكون العينان باقيتين على حالهما .. وقد يكون الفم والخدان مستديرة أكثر من الطبيعى .. لكـن الصورة فى مجموعها صورته ، ووجوده بجانبى يريحنى ..

الوصيفة: كيف يمكن لامرأة مثلك : شابة ، وجميلة ، وغنية ــ بل أجمل وأغنى نساء البلدة ــ أن تعتزم الصوم فى قبر زوجها حتى تموت جوعا ..؟!

الأرملة : وما لك تصرين على البقاء معى ومقاسمتى مصيرى ؟

الوصيفة: هذا طبيعى ، لا يمكن أن أتركك ..

الأرملة : إن حكمى على نفسى بالموت لأن زوجى قد مات ، أمر يخصنى .. أما موتك أنت ، لموتى . فهو انتحار .. جنون .. وحشية .. إنى آمرك بتركى أموت وحدى .

الوصيفة : جنون ووحشية ؟.. بل إن الجنون والوحشية أن تنفذى قرارك الرهيب .. ما الذى أوحى إليك بذلك ؟

الأرملة : ثرثرة نساء البلدة ــ وعلى رأسهن شقيقة زوجى ــ وبخلهن وقسوتهن .. وتغامزهن بشأن استعدادى لحريتى .. كل ذلك ساهم فى إغرائى على تنفيذ الفكرة .. كان لا بد من قدوة . من مثال يعلم النساء المتمسكات بأهداب الدنيا ما تستطيع فعله واحدة من جنسهن !.. لا تحاولى أن تثنينى عن قرارى ، فهذا

مستحيل .. سوف أموت فى هذا القبر ، وسوف يسجل التاريخ اسمى ..

الوصيفة: إذن فأنت تموتين على سبيل العناد ، والكبرياء .. تريدين أن تدهشى أهل البلدة ..؟

الأرملة : نساءها على وجه الخصوص .. تذكرى روعة الموكب الذى رافقنى إلى هنا حين أعلنت نيتى .. الموسيقى ، والأناشيد ، والترانيم ، ومئات النسوة الراكعات على ركبهن خشوعا وتحية لى !.

الوصيفة: كلهن سعيدات اليوم بقرارك .. فقد كان جمالك وذكاؤك وثراؤك وترفك يقتلهن حسدا وغيرة .. يا للرياء ، إنهن ينتحبن وينشجن بصوت عال ، فى الوقت الذى يضحكن فيه فى أكمامهن .. فكيف يمكن أن تجوز عليك هذه الخدعة الكبيرة ؟

الأرملة : أنت مغرضة ، تتوسلين إلى إنقاذى بكل وسيلة !

الوصيفة: سيدتى ...

الأرملة : صه .. ولا تلجئى إلى العناد فتصممى على اللحاق بى إلى الجحيم .. فلقد أوصيت بثروتى كلها لك .

الوصيفة: لى أنا ؟

الأرملة : نعم .. إنى لا أزال أدخر هذه المفاجأة المفجعة لشقيقة زوجى !

الوصيفة: واأسفاه !..

الأرملة : ولم الأسف ؟

الوصيفة: لأنه ليست لى أسرة تنتفع بهذه الثروة .

الأرملة : ستنتفعين بها أنت ..

الوصيفة: كيف وأنا سأموت معك ..؟

الأرملة : إن نبلك وإخلاصك جميلان حقا .. ولكن أصغى إلى .. يجب أن تبقى على قيد الحياة .. إن موتى يجب أن يظل فريدا فى نوعه ..

الوصيفة: فكرى فى أنك ستصعقين حسادك حين تعلنين عدولك عن مشروعك وعودتك إلى بيتك !

الأرملة : سوف أضطر إلى منعك من فتح فمك وتثبيط همتى .. إنك لن تفلحى فى إثنائى عن عزمى .

الوصيفة: إننى أدافع عنك ضد نفسك .. ولسوف أصبح كالبومة إذا استلزم الأمر.. فكرى فى الدنيا الجميلة التى تريدين تركها .. الربيع ، وضوء القمر ، والاستسلام للحب .. الذى لم تعرفيه أو تذوقيه قط !

الأرملة : اصمتى ...

الوصيفة: (صائحة) كيف يمكن لامرأة مثلك فى زهرة شبابها ، لم تذق الحب قط ، أن تفكر فى أن تتبع إلى القبر زوجها المسن ، بحجة ضرب المثل الأعلى وتقديم القدوة الحسنة لأهل البلدة ، أو معاقبة ألسنة السوء ؟.. إنك لا تعاقبين إلا نفسك إذ تتطوعين بالموت جوعا فى هذا القبر .. آه لو كنت عاشقة ،

To: www.al-mostafa.com

إذن لما كنا الآن هنا !

الأرملة : عاشقة لمن ؟

الوصيفة: ليس لزوجك طبعا .. فإن الدنيا حافلة بالرجال الذين لا يدينون بجمال عيونهم للمحنط !

الأرملة : لقد كنت أحب زوجي ، و لم أفكر قط فى خيانته مع أى رجل آخر ..

الوصيفة: كان ينقصك الالتقاء برجال آخرين .. إنك لا تحسبين فى عداد الرجال أولئك الطامعين فى ثروتك .. إنهم لا يتأثرون بجاذبية جنسنا قدر ما يتأثرون بجاذبية المال ..

الأرملة : إن قمر هذه الليلة من ليالى الربيع وعطرها قد أفقداك اتزانك .. إذن فأنت ترين أنه لا يوجد فى بلدتنا كلها شاب يعتبر فى نظرك رجلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى ؟ فأين ترين يمكن أن أجد هذا الرجل المثالى ؟

الوصيفة: و لم نذهب بعيدا ؟.. إن أول رجل من عامة الشعب سوف تقع عليه عينك تنطبق عليه شروطى .

الأرملة : ومن يكون ؟

الوصيفة: حارس المقبرة .

الأرملة : هذا الأحمق الذى يمر كل حين ليستفسر عن أنبائى ..؟

الوصيفة: أنت ترينه هكذا لأنه خجول طيب القلب .. إن ثراءك يخجله واعتزامك الموت يبلبل أفكاره ..

الأرملة : وهل أنت واثقة من حسن نواياه ؟

الوصيفة: هذا أمر تسهل معرفته ...

الأرملة : أهو شاب ؟ وجميل ؟

الوصيفة: ألم تريه قط ؟

الأرملة : وما الذى كان يدعونى إلى تأمل هيئته ؟

الوصيفة: يكفى أن تلقى عليه نظرة فاحصة حتى تقتنعى بأن المرأة يجب ألا تفكر فى مغادرة الدنيا دون أن تحاول التعرف برجل .. رجل بمعنى الكلمة ، لا يشبه شباب البلدة المخنث ولا هذا .. هذا الشيء المخيف الذى يرعبنى !

الأرملة : إنى أمنعك من التحدث عن زوجى بهذه اللهجة !

الوصيفة: إن سيدى لم يكن يشبه السادة فى شيء ، إنه ليشبه هذه التماثيل من الكعك التى يجلبها الأصدقاء ، والتى لا روح فيها .. (**تنظر إلى كعك الموتى نظرة الجائعة**) إن الموتى لمحظوظون .. إنهم على الأقل يستطيعون أن يأكلوا .. !

الأرملة : كفى .. اصمتى أو اخرجى ، فالباب مفتوح على مصراعيه .. ولكن إذا اخترت البقاء فعليك أن تحترمى صمتى وتدعى الموت يأخذنى فى هدوء .

الوصيفة: صه ، هذا هو حارس المقبرة .. لا تنسى أن ترمقيه بنظرة مختلسة .. إنه يستحقها .

الأرملة : (**تهرع إلى الفراش فتتمدد عليه وتغمض عينيها**) تحدثى إليه بصوت منخفض إذا شئت .. ولكن احذرى أن يوجه إلى كلاما ..

الوصيفة: نامى بعين ، وانظرى إليه بالعين الأخرى !

المشهد الثانى

الحارس : (يدخل مجفلا فى خجل) أهى نائمة ؟
الوصيفة: نعم .. اقترب أكثر !
الحارس : يا للمسكينة ..!
الوصيفة: بل يا لها من عنيدة ..
الحارس : إنها لم تأكل منذ مساء أمس ..
الوصيفة: أواه ، إنها قد اعتادت ذلك .. كانت أحيانا تبقى ثمانية أيام بلا طعام ، كى تحتفظ بقوامها رشيقا .. أنا التى يحق لى أن أشكو ، فلكم أنا جائعة !
الحارس : لقد عرضت عليك أن تقاسمينى طعامى ..
الوصيفة: ما دامت سيدتى ترفض أن تأكل فيجب أن أجاريها .. وما دامت تريد الانتحار . فسوف أنتحر معها .. هذا واجب كل خادمة مخلصة .
الحارس : إننى منذ الأمس عاجز عن التفكير فى غير هذا الغرام العجيب !
الوصيفة: أى غرام ؟
الحارس : الغرام الذى يدفع الإنسان إلى طلب الموت أسوة بحبيبه الذى مات .. هل كان شابا ؟ جميلا ؟

الوصيفة: صه ! (تجره معها نحو الجثة المحنطة) إليك هو !

الحارس : مستحيل ! أمن أجل هذا الرجل تقدم هذه المرأة على ...؟

الوصيفة: بالضبط ..

الحارس : هذا يجعلنى أعجب بها أكثر .. إن العاطفة كثيرا ما تغرى بالحماقات ، أما الموت قياما بالواجب وحده ، فهذا نبل لم أكن أتصور وجوده فى امرأة ..!

الوصيفة: بل هو حماقة ..

الحارس : أنت لا تفهمين .. إننى لم أصادف فى حياتى امرأة ، امرأة بمعنى الكلمة ، مثل سيدتك .. لم أصادف سوى فتيات سخيفات .. ألا يمكننى أن أرى سيدتك وأتحدث إليها فى فرصة أوسع ..؟

الوصيفة: ممكن جدا ، حين تسمح لها قواها بالجلوس أو الوقوف .. ربما غدا .. وإن كنت أتوقع أنى لن أستطيع الوقوف على قدمى ، من فرط الجوع !

الحارس : إذن فإلى اللقاء .. يجب أن أذهب لحراسة الموتى الثلاثة .

الوصيفة: من هم ؟

الحارس : ثلاثة لصوص أبت السلطات الترخيص بدفنهم كى تظل جثثهم معروضة أمام الأنظار ، للعبرة والعظة .. لكن الرؤساء يخشون أن تعمد عصاباتهم أو عائلاتهم إلى سرقة جثثهم لدفنهم سرا .. يجب أن أسرع .. إذا احتجت لأبسط شىء فما عليك إلا أن تنادينى .. (يخرج)

المشهد الثالث

الوصيفة: (لسيدتها) والآن .. ما رأيك فيه ؟

الأرملة : لا شك أنه قدير على أن يسعد امرأة من طبقته (تنهض فتجلس بقرب المائدة التى عليها الكعكات ، وتشرد عيناهـا .. كالحالمة) .

الوصيفة: هل فكرت فى الأمر ؟

الأرملة : (تقفز كمن تفيق من حلم) فيم ؟

الوصيفة: فيما كان سيدى لينصحك به لو علم ...

الأرملة : بل إنه يعلم بنيتى ويقرنى عليها .. إنه ينادينى ، وينظر إلىّ .. وعلى أية حال فرأى سيدك لا شأن له البتة بهذه المسألة .. لقد كنت دائما فى حياتى معه مستقلة الرأى ، وكان هو يعطينى الحرية الكاملة ..

الوصيفة: أعلم ذلك .. كان يعطيك حريتك ويحتفظ لنفسه بحريته .. ولعله لا يرحب بأن تتبعيه إلى المكان الذى هو فيه .. لقد طالما قال لى : « لا تخبرى سيدتك بموعد خروجى وعودتى .. إنى أمقت التجسس على ! »

الأرملة : ما هذا الذى تزعمين ؟.. هل كان زوجى يدخل ويخرج فى الخفاء !؟

الوصيفة: لم أقصد هذا .. قصدت فقط أنه كان يعتز بحريته ويعرف كيف يحصل عليها !

الأرملة : يا لسذاجتي !.. أنا التي لم أفكر يوما في .. (**تدق بيدها على المائدة**) سوف تظل النساء دائما ضحايا غريرات !.. وأنت ، كنت تساعدينه على خيانتي .. يا للكارثة !.. سوف أنتقم ..

الوصيفة: بالضبط .. انتقمي لنفسك منه بعدم التضحية من أجله .. أهربي من هذا القبر ، ولكن لا تقولي إني كنت أساعده على خيانتك .. كل ما في الأمر إني كنت أساعده على الاحتفاظ بالسلام في البيت !

الأرملة : يا للخائن المخادع !

الوصيفة: ها أنت ذي تغالين مرة أخرى .. لم يكن سيدي خائنا مخادعا ، بل كان على العكس من ذلك سيدا شجاعا .

الأرملة : دافعي عنه .. أكملي المهزلة .. من حسن الحظ أن شخص زوجي ليس له شأن كبير بموتي ، وإنما تمليه اعتبارات عليا .

الوصيفة: أليست الاعتبارات العليا التي تضطرك إلى الموت هي أنانية شقيقة زوجك وألسنة بعض الحمقاوات ؟

الأرملة : (حالمة) إذن فهو كان يخرج .. ويعود .. ويأتمنك على أسراره .. (**وفيما هي تتكلم وعيناها شاردتان إلى بعيد ، تتناول دون أن تشعر إحدى كعكات الميت وتأكلها !**) لكم أنا سعيدة بأن ألحق به سريعا كي أناقشه الحساب !

الوصيفة: إنك لن تقولى لسيدى إننى التى قلت لك ؟

الأرملة : لست من طراز اللواتى ألفن النميمة ، وأنت تعلمين ذلك .. ولكن .. (**تتناول كعكة أخرى وتأكلها**) كنت أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يعرف حقيقة الشخص الذى يعيش معه (**تنتبه فجأة إلى أنها تأكل**) أواه ..!

الوصيفة: ماذا ؟

الأرملة : لقد أكلت من الكعك دون أن أشعر ..

الوصيفة: ما دامت سيدتى قد أكلت ، وأنا أقلد سيدتى ، فلم يبق ما يمنع من أن آكل أنا بدورى .. أتسمح سيدتى ؟ (**تتناول هى الأخرى كعكة**) .

الأرملة : لا بأس ، فإن اليوم الأول لا يهم .. سوف نبدأ من غد .. يجب أن لا يعرف الحارس أننا أكلنا ..

الوصيفة: بالعكس .. إنه يريد أن نشاركه أطعمته المحفوظة ، وما دام بدء الصوم قد أجل إلى غد فإنى أقترح أن نقبل ما عرضه ..

الأرملة : وماذا يقول عنى هذا الشاب ؟ لا بد أنه يحسبنى مجنونة ..

الوصيفة: لقد قال لى : « لا بد أن سيدتك تمر بتلك الفترة التى تفضل فيها النساء الانزواء بعد انفضاض الرجال عنهن .. كل ما فى الأمر أنها ماكرة أكثر من سواها بحيث آثرت أن يعتقد الناس أنها أرملة سامية النفس والمقاصد ، فى حين أنها امرأة جاوزت طور الشباب ! » .

الأرملة : (**تعتدل فى جلستها**) هل قال هذا ؟ أيجرؤ ..؟

الوصيفة: سيدتى .. إنه أساء الحكم عليك لأنه لم يرك إلا فى الظل .. لم يعرفك على حقيقتك .

الأرملة : هذا هو ... (يظهر الحارس مقبلا ...)

المشهد الرابع

الحارس : (من النافذة) سيدتى ..

الأرملة : (صائحة) أيها الحارس .. قف حيث أنت .. انظر ! (تدير له ظهرها وتخلع ثوبها الخارجى ..)

الحارس : أواه !

الأرملة : والآن تستطيع أن تقول لرجال المدينة ونسائها إننى لست حدباء . ولا مقوسة الجسم ، ولا بدينة ، ولا نحيفة .. وإننى هجرت الدنيا والحياة وأنا فى أتم رشاقتى وجمالى !

الحارس : ولكن يا سيدتى ..

الوصيفة: لا تكن أبله .. امض عن النافذة .. (**يدخل من الباب**) .

الأرملة : ادخل أو اخرج ، ولكن لا تقف هكذا على عتبة الباب تتأملنى بغباء ..!

الحارس : ها أنا ذا أخرج يا سيدتى .. ها أنا ذا أخرج (**يهرع خارجا**) .

الأرملة : ها هو قد فر .. الحقى به . أحضريه .. ياله من غبى !

الوصيفة: حسنا .. سأحضره لك ..

(ولكن فى اللحظة التى تتأهب فيها للخروج تسمع أصوات ضجيج تقترب) .

الأرملة : (**تطل من النافذة**) هى ... إنها شقيقة زوجى قد جاءت لزيارتى فى « زفة » من الحرس . لا بد أن حافزا قويا هو الذى دفعها إلى ارتياد مقبرة فى هذه الساعة .. اذهبى للحاق بالشاب الأبله .. وسوف أتخلص من زائرتى بأسرع ما يمكن !

(وتلتقى الوصيفة وهى خارجة بشقيقة الزوج التى جاءت فى كامل أناقتها وزينتها فتحييها فى فتور ..) .

الزائرة : حبيبتى !

الأرملة : حبيبتى ! (**يتعانقان**) .

الزائرة : حبيبتى .. ياللفظاعة ..!

الأرملة : فيم الفظاعة ؟

الزائرة : أتقيمين فى مكان كهذا ؟.. إنه فى الصباح ، فى ضوء

الشمس ، كان يبدو أقل رهبة ! لقد جئتك يا عزيزتى مدفوعة بقوة لا تقاوم . أحسست أننى يجب أن أبذل محاولة أخيرة لانتزاعك من هذه الخاتمة .

الأرملة : لقد اتخذت قرارى وانتهى الأمر .

الزائرة : هذا مخيف ، مخيف . إننى أحبك ، نحن كلنا نحبك .. لكن وجهك لا يبدو عليه أصفرار الصوم !

الأرملة : لأننى مستريحة ، لا أكاد أفعل شيئا أو أقوم بأى مجهود !

الزائرة : هذا طبيعى .. أما أنا فيخيل إلى أن الحرمان من التوافه الصغيرة أقسى من الحرمان من الضرورات الجوهرية .. والتضحية بحياتى إذا لزم الأمر أسهل على كثيرا من التضحية « بالدوش » اليومى وشطائر « التوست » الجاف ! وبهذه المناسبة ، أريد أن أستفسر منك عن شيء وإن بدا لك مسلكى فظا .. هل كتبت وصيتك ؟

الأرملة : نعم .. وإنى أحتفظ لك بعد موتى بمفاجأة !

الزائرة : لئن كنت قد فاتحتك فى هذا الموضوع فإنما لأجل مصلحتك .. فقد خشيت أن تنسيك بطولتك التفكير فى أشياء لا غنى عنها .. (**تنهض**) .

الأرملة : لن أستطيع مرافقتك إلى الباب ..

الزائرة : أواه يا عزيزتى .. إننى لا أصدق أن هذه نهايتك .. بل يجب استعادتك .. على كل حال فالليل خير ناصح ، وغدا يطرد الصباح كل هواجسك فتعودين إلى البلدة ، ومن يدرى ..

فقد تدفنيننا جميعا قبل أن تموتى .. هل يعجبك ثوبى ؟..
فلأذهب .. مساء الخير (وأثناء مرورها أمام الجثة تضع يدها
على الصندوق الزجاجي) مساء الخير لك أنت أيضا !

الأرملة : (فى دهشة) ماذا دهاك !

الزائرة : إننى لا أغير لهجتى مع الشخص سواء كان حيا أو ميتا ، بل أحتفظ دائما بأسلوبى .. وماذا تنتظرين ، لست فى حاجة إلى أن أموت كى أعيش مع الموتى من أعزائى .. الوداع يا عزيزتى (وتختفى) .

الوصيفة: سيدتى .. سيدتى !

الأرملة : ماذا ؟

الوصيفة: (للحارس) أدخل .. سيدتى ، لقد وقع حادث مكدر لحارسنا .

الحارس : سأقص عليك ما وقع يا سيدتى .. كنت مكلفا بحراسة ثلاث جثث غير مرخص بدفنها ، فلما جئت لأزوركما منذ فترة ، تسلل نفر من أسرة أحد الثلاثة وسرقوا جثته .. وهكذا سأفقد عملى هنا ولن أستطيع رؤيتك !

الأرملة : أهذا ما يحزنك ؟

الحارس : فلأعترف .. نعم !.. ولا بد من أن أفعل المستحيل للعثور على جثة حديثة عهد بالوفاة كى أضعها مكان الجثة المفقودة ..

الأرملة : إن زوجى يسر بأن يقوم لك بهذه الخدمة .

الحارس : سيدتى !.. هذا مستحيل .

الأرملة : ما هو هذا المستحيل ؟.. إن الأحياء يخدمون الموتى بما فيه الكفاية كي يرد لهم الموتى بعض جميلهم ..

الحارس : لن أجرؤ قط على ...

الأرملة : لا داعي للمجاملات .. بل إن هذه الجثة قد بدأت تزعج منامي وتسبب لي كابوسا ! (**إلى الوصيفة**) ساعدينا ..

الوصيفة: أتريدين إخراج الجثة ؟

الأرملة : يلزم أن نتعاون نحن الثلاثة لإتمام هذه المهمة (**إلى الحارس**) ادفع أنت التابوت ، فأنت أقوانا .. ونحن نجذبه إلى الخلف .

الوصيفة: هل تنبهت سيدتي إلى أن التابوت لن يمر من الباب ؟ لا بد من تجزئة سيدي !

الأرملة : (**تضرب الأرض بقدمها**) كما أمكن إدخاله ، يمكن إخراجه .. يا للغباء !

الحارس : ينبغي أن نميله على جانبه ..

الأرملة : بالضبط !

الوصيفة: سوف يتشوه الوجه .. لقد قال المحنط ..

الأرملة : الوجه ! الوجه ! إنه لا يشبهه على أي حال .. ولن نترك هذا الفتى يروح ضحية نوبة من العاطفية السخيفة !

الحارس : لقد مر !

الأرملة : برافو .. لقد مر ! (**يختفي التابوت في الخارج**) .

الحارس : سيدتي .. كيف أشكرك ؟

الأرملة : هذا سهل (**إلى الوصيفة**) أوضحي الأمر له !

الوصيفة: آه ، حسنا .. (تهمس للحارس فى أذنه) .

الحارس : (يحمر وجهه) أواه ..!

الأرملة : دعنى أهمس لك باسمى فى أذنك .. (تهمس له .. ثم يتعانقان طويلا !) .

الحارس : إنها امرأة تفكر فى كل شىء !

الوصيفة: إنها امرأة ذات عقل ..

الحارس : وقلب !

الأرملة : لقد بلغت سن الرشد .. واأسفاه !

الحارس : يا خبيثة .. الآن جاء دورى فى أن أهمس لك باسمى فى أذنك ! (عناق) .

الأرملة : نونو ، إنه يوشك أن يخنقنى !

الوصيفة: ما دمت سوف تمنحينه الحياة ، إذن فالرد خالص .. دعوا الموت للموتى .. ولا تتحدثوا منذ الآن إلا عن .. الحياة !

(ستار)

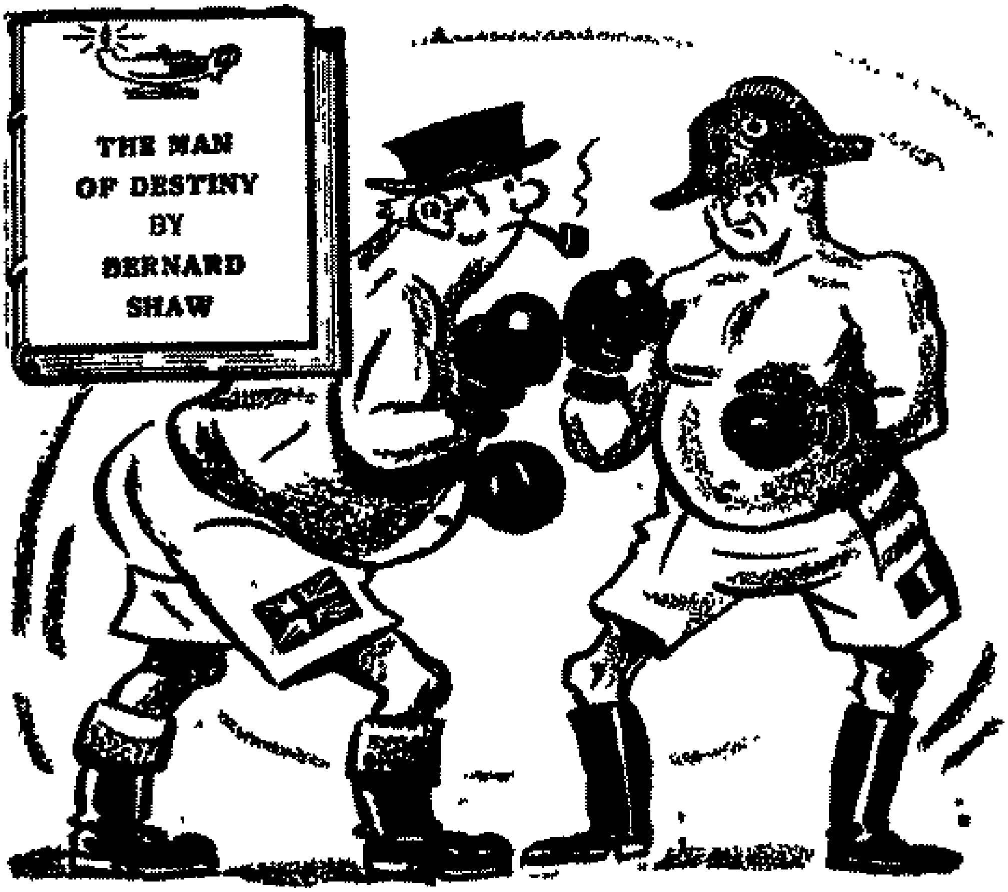

رجل الأقدار!

المسرحية التي وضعها "جورج برنارد شو"
وسخر فيها من الانجليز والفرنسيين!

برنارد شو .. « الخارج » على بلده وأهله !

● لم يوفق كاتب فى التاريخ إلى وصف الإنجليز وأخلاقهم قدر ما وفق الفيلسوف الساخر « جورج برنارد شو » ، ولعله ما كان يجد الجرأة على أن يصارح الإنجليز — وهو يعيش بينهم وينتمى إليهم ويتربع على عرش الأدب لديهم — بعيوبهم المخزية ، لو لم تكن الدماء الأيرلندية الحرة تجرى فى عروقه . وكم تعرض لحملات مقذعة فى هذا الصدد ، ولكن هذه الحملات لم تزد الإنجليز أنفسهم إلا إقبالا على إنتاجه ، واعتزازا بأدبه .. وكان لا يفتأ يقول : « لست أحفل بغير الحقائق الواقعية القائمة .. إن المثالية ليست سوى اسم من الأسماء البراقة التى تخلع على الخيال فى مضمارى السياسة والأخلاق ، فأنا لا أقنع بالمبادئ الخلقية الوهمية ، ولا أخلع حسنا زائفا على اللصوصية والجوع والمرض والجريمة والخمر والحرب والقسوة ، وغيرها من المعالم العامة للحضارة .. تلك المعالم التى تدفع الناس إلى المسرح ينشدون فيه خداعا زائفا أحمق ، يصور لهم تلك الأشياء الواقعية فى ثياب التقدم والعلم والأخلاق والدين والوطنية والتفوق الاستعمارى والعظمة القومية ، وما إلى ذلك من أسماء تبتدع لإخفاء الواقع » !

والمسرحية التالية ليست تمثيلية بالمعنى المفهوم ، وإنما هى مسرحية للقراءة ، كتبها شو « فى لحظة من لحظات الخمول ، فى سنة ١٨٩٥ » كما

قال ، ليعرض فيها آراء صريحة جريئة فى الفرنسيين والإنجليز والحروب والاستعمار .. ولا جدال فى أن شو لو كان حيا فى عام ١٩٥٦ ، لكتب أبدع تحفة على الإطلاق ، فى وصف التحالف الفرنسى الإنجليزى الذى مثل فى بور سعيد أبشع مسرحيات الوحشية !

* * *

● نحن فى اليوم الثانى عشر من مايو سنة ١٧٩٦ .. فى قرية (تافاتسانو) على الطريق بين (لودى) و (ميلان) فى شمال إيطاليا .. والنهار قد تجاوز منتصفه ، وأطلت الشمس على سهول (لمباردى) وهى تتلظى ، فراحت ترمق جبال الألب فى احترام ، وترنو إلى قرى الثمل ، غير مشمئزة لنعاس « الحلاليف » فى القرى ، ولا مستاءة لما كانت تستقبل به من فتور فى الكنائس !.. ولكنها أخذت ترمق فى ازدراء طاغ جحافل ضمت أسراب حشرتين شريرتين .. أو بالأحرى جيوش الفرنسيين والنمسويين !.. فلقد حاول النمسويون قبل ذلك بيومين أن يمنعوا الفرنسيين من أن يعبروا النهر على الجسر الضيق القائم عند (لودى) ، غير أن الفرنسيين — بقيادة ضابط فى السابعة والعشرين يدعى « نابليون بونابرت » ، لا يحترم قواعد الحرب ! — اقتحموا الجسر تحت وابل النيران ، مستعينين بمدفعية ضخمة ساهم فيها القائد الشاب بيديه .. فقد كانت المدفعية فنه الذى تخصص فيه . إذ تدرب على المدفعية فى العهد القديم — فى فرنسا — وبلغ الكمال فى الفنون العسكرية .. فنون التكاسل عن واجباته ، وغش « الصراف » بشأن نفقات السفر والانتقال ، وتقدير الحرب بكمية هدير المدافع ودخانها !

وكان لهذا الضابط الشاب جلد غير عادى على العمل ، وإدراك واقعى لطبيعة البشر فى المسائل العامة .. ثم إنه كان واسع الخيال ، ولكنه لم يكن يبنى خياله على أوهام . كما كان مبدعا ، ولكن بلا عقيدة ، ولا ولاء ، ولا وطنية ، ولا أى مبدأ من المبادئ العامة ! .. ولم يكن ذلك نتيجة عجز عن استيعاب تلك المبادئ ، بل إنه — على العكس — كان قد استوعبها كلها فى صغره ، وأصبح — بفضل ما أوتى من موهبة تمثيلية مرهفة — قادرا على أن يستغلها ببراعة الممثل ومهارة المخرج المسرحى !

ولقد علمه الفقر ، وسوء الحظ ، والإخفاق المتكرر فى أن يصبح مؤلفا ، وهوان الزجر والصفعات كموظف صغير ، والتأنيب والعقاب كضابط لا يبارى فى عدم الأمانة .. كل هذه اكتسحت الغرور من نفسه ، واضطرته إلى أن يدرك أن الدنيا لا تعطى أمثاله شيئا ما لم ينتزعوه هم بالقوة . فالدنيا — فى هذه الناحية — لا تخلو من جبن وطيش ! .. ومن ثم فإن نابليون — كمدفعى يهاجم العبث السياسى بلا رحمة — جعل نفسه ذا نفع .. فالواقع أن من المستحيل على إنجلترا أن تعيش — حتى فى الوقت الحاضر — دون أن تفكر من آن إلى آخر فى مدى الخسارة التى منيت بها لأنها حرمت من أن يهزمها هذا الرجل !!

* * *

● على أنه — فى ذلك اليوم من أيام مايو سنة ١٧٩٦ — كان الضابط الشاب حديث عهد بالترقية إلى مرتبة « الجنرال » التى حصل عليها باستخدام زوجته فى إغواء المديرين — الذين كانوا يرأسون الحكومة الفرنسية إذ ذاك — وبفضل ندرة الضباط فى فرنسا ، بسبب هجرتهم إلى

الخارج عند قيام الثورة ا.. على أن الفضل الأكبر لترقيته كان يرجع — لدرجة كبيرة — إلى إيمانه الجديد بقيمة إطلاق المدافع على الناس ا.. وكان جيشه — من حيث الفوضى — خليقا بأن يذهل بعض الكتاب المعاصرين الذين ينظرون إلى نابليون تحت أضواء مجد « الإمبراطور » التى أحاطت به فيما بعد ، على أن نابليون لم يكن قد أصبح إمبراطورا ، بل كان يحاول أن يفرض نفوذه على جنوده بما كان يعرضه عليهم من تظاهر بالشدة . ولكنه لم يكن قد غدا بعد فى منصب يستطيع أن يفرض منه إرادته عليهم بالأسلوب العسكرى .. بالجلد بالسوط ذى التسع الشُّعب! وكانت الثورة الفرنسية قد أبدلت عادة الملكية — فى تأخير دفع مرتبات الجند أربع سنوات — بعادة جديدة هى عدم الدفع على الإطلاق ، اللهم إلا بالوعود والمجاملات الوطنية ا.. ومن ثم سعى نابليون إلى جبال « الألب » على رأس رجال مفلسين ، مهلهلى الثياب ، فهم لذلك لم يكونوا مستعدين لأن يحتملوا كثيرا من النظام ، لا سيما إذا كان الشخص الذى يفرضه عليهم جنرالا ناشئا ا.. على أن نابليون وجد هذا الظرف أكثر نفعا من ألف مدفع ، إذ قال لجنوده : « إن لديكم الكثير من الوطنية والشجاعة ، ولكنكم لا تملكون نقودا ، ولا ثيابا ، ولا ما تأكلونه تقريبا .. وفى إيطاليا كل هذه الأشياء ، إلى جانب المجد . ومن الممكن أن يجنيها جيش مخلص يقوده جنرال يرى أن النهب حق طبيعى للجندى .. فإلى الأمام يا أبنائى ! » .

وكانت النتيجة كافية لإرضائه ، إذ اجتاح الجيش إيطاليا ، وراح الجنود يحاربون فى النهار ، ويسيرون فى الليل قاطعين مسافات لا تصدقها

العقول ، ليظهروا فى أماكن لا يتصور أحد ظهورهم فيها .. وما كان ذلك لأن كل جندى كان يطمع فى أن يغدو « ماريشالا » ، وإنما لأنه كان يأمل فى أن ينهب نصف « دستة » — على الأقل — من الملاعق الفضية ، فى اليوم التالى !

وجدير بالذكر أن الجيش الفرنسى لم يكن فى حرب مع الإيطاليين ، بل إنه ذهب ليخلصهم من ربقة النمسويين ، وينعم عليهم بنظم الجمهورية الفرنسية .. ولهذا فإن أعمال النهب لم تكن تعتبر أكثر من استباحة لمتاع الأصدقاء ، فخليق بالأصدقاء أن يتقبلوا هذا التنازل شاكرين !! .. وهكذا كان نابليون قادرا على أن يمضى مظفرا — بوجه عام — دون أن يقوم بالمعجزات ، لا سيما وأنه كان متحررا من التقاليد العسكرية ، لا يعبأ بأوامر باريس ، فى حين أن غريمه « بوليو » — القائد النمسوى — كان مقيدا بسياسة رجال الحكم فى النمسا ، وبالفنون العسكرية التقليدية العريقة ، وبعادات المجتمع الأرستقراطى فى (فيينا) !

وكانت هذه الانتصارات خليقة بأن تصنع من نابليون — فيما بعد — إمبراطورا .. كما كان رواء هذا المنصب خليقا بأن يجعل مهمة الروائى مهمة صعبة ، وهو يسجل هذا المنظر الذى جرى فى (تافاتسانو) ، فى مرحلة مبكرة قبل أن يصبح نابليون إمبراطورا !

* * *

● كان خير مأوى فى (تافاتسانو) يتمثل فى فندق صغير ، هو أول ما يصادفه المسافر فى الطريق بين (ميلان) و (لودى) . وكان هذا الفندق يقوم وسط الكروم التى كانت تصلها بالقاعة الكبرى فيه شرفة

واسعة .. وكان أطفال القرية — الذين أثارتهم ظروف الحرب ودخول الفرنسيين قريتهم فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم — موزعين بين الخوف والفضول .. الفضول الذى راح يغريهم بمحاولة استراق النظر إلى نابليون خلال نوافذ القاعة الكبرى ، والخوف من الجندى الحارس الذى كان يقف بباب القاعة ، والذى لم يؤت شاربين حقيقيين ، فرسم على وجهه شاربين بدهان حذاء « الجاويش » الذى كان رئيسا له .. ولكن الحر ، وثقل الزى العسكرى ، أذابا طلاء الشاربين وجعله يسيل خطوطا رفيعة انحدرت على ذقنه وعنقه ، وجعلت شكله سخيفا — فى عين التاريخ بعد مائة سنة ! — ورهيبا فى أعين الأطفال الإيطاليين إذ ذاك .. فكأنه غول لن يلبث أن يغرس « سونكى » بندقيته فى أحدهم ، ثم يرفعه ليلتهمه !

وكان صاحب الفندق — جيسيبى جراندى — رجلا بشوشا ، فى الأربعين من عمره ، فطر على أن يكون مضيفا رائعا ، لا سيما وأنه كان فى أوج الغبطة فى ذلك المساء ، إذ أن نزول القائد فى فندقه كان خليقا بأن يحميه من عبث الجنود !.. وكان نابليون يلتهم الطعام الشهى الذى قدمه إليه « جيسيبى » ، وهو منكب على الخريطة . وما لبث أن طلب من الفندق مدادا أحمر ، فلما لم يجد ، أمره بأن يذبح شيئا ويأتيه بدمه .. وأردف : « اقتل زوجتك ! » .

جيسيبى : حبا وكرامة يا صاحب السعادة ، ولكنى لسوء الحظ لست قويا .. إنها خليقة بأن تقتلنى !

نابليون : سيان عندى أن تقتلها أنت أو تقتلك هى !

ويفرغ نابليون من الأكل ، فينهض ويسير إلى المدفأة ، بينما يقول جيسيبى : « يقولون إنك تعنى بكل شيء عدا الحياة الإنسانية ! » .

نابليون : إن الحياة الإنسانية هى الشيء الوحيد الذى يعنى بنفسه !

جيسيبى : ما أغبانا بجانبك يا صاحب السعادة ؟.. الواقع أننى سأسعد إذ أرقبك حتى تصبح إمبراطورا لأوربا !

نابليون : أمبراطور أوربا ؟.. ولماذا أوربا فقط ؟!

جيسيبى : صحيح .. إمبراطور الدنيا ، لم لا ؟.. الرجال سواء ، وكل بلد كالآخر .. وكل معركة كالأخرى .. اهزم بلدا تهزم الكل !

نابليون : وتحكم الكل ، وتحارب فى سبيل الكل ، وتصبح خادم كل امرىء تحت ستار السيادة على كل أمرىء !.. إننى أمنعك من أن تتكلم عنى !

فيتحول صاحب الفندق ويحدثه عن النزيلة الوحيدة فى فندقه .. سيدة فى الثلاثين من عمرها ، بديعة الحسن . ويقترح جيسيبى أن يستدرجها إلى مائدة القائد ، ولكن نابليون يبدو قلقا ، مشغول البال . فقد كان ينتظر رسولا يحمل إليه أوراقا هامة . ولكنه لا يلبث أن يسمع صوت السيدة وهى تنادى « جيسيبى » فيسأله عنها .

جيسيبى : لقد وصلت إلى هنا قبيل وصول سعادتكم ، فى عربة من عربات فندق النسر الذهبى فى (بورجيتو) .. وهى وحيدة ، لا تصطحب سوى حقيبتى ثياب .. وقد قال الحوذى إنها تركت جوادا فى « النسر الذهبى » .. جواد حرب ، بسرج عسكرى !

ويعجب نابليون ، حتى إذا سمع من الرجل أنها فرنسية ، خطر له أن الجواد لا بد كان لزوجها ، وأن هذا الزوج قد قتل فى المعركة ، وفى تلك الأثناء يصل الرسول الذى كان يرتقبه نابليون .. فإذا هو ملازم شاب طويل القامة ، معتد بنفسه ، عديم الخوف ، عديم الاحترام ، عديم الخيال ، عديم الإدراك . ويقتحم القاعة ، فما أن يرى نابليون ، حتى يؤخذ ، ثم يحييه ، ولكنه لا ينم بمسلكه عن أى توقير !.. ويسأله نابليون عن سر تأخره مائة دقيقة عن الموعد الذى حدده له كى ينتظره فى تلك القرية ، كما يسأله عن جواده .

الملازم : (يخلع قفازيه فيلقى بهما مع قلنسوته على المائدة وهو واجم) : آه ، أين جوادى حقا؟.. هذا عين ما أريد أن أعرفه !

نابليون : (فى سخرية غاضبة) : حقا ؟.. وأين الرسائل ؟

الملازم : لست أدرى عنها أكثر مما تدرى أنت يا جنرال !.. أحسبنى الآن سأقدم إلى محكمة عسكرية ؟.. لست أحفل ، ولكن .. أؤكد لك يا جنرال أننى لو رأيت ذلك الشاب البرىء المظهر ، فسوف أشوه جماله .. ذلك الكذاب الممشوق القوام !

نابليون : أى شاب برىء المظهر ؟.. اعتدل ، وأدل بحديثك !

ويفهم من حديث الضابط أنه التقى بشاب مليح ، ساذج المظهر ، زعم له أن عينيه تشبهان عينى أخته الوحيدة ، كما بكى حين سمع الضابط يتحدث عن الحبيبة التى فارقها .. واستطرد قائلا :

« وأسلمني سلاحه وحصانه ورسائله — وهي جد مهمة — وتركني أرحل بها كلها ليؤكد ثقته بي طبعا .. وكنت أهلا للثقة ، فأعدتها إليه بأمانة ، ولكن هل تتصور أنه غدر بي حين ائتمنته على سلاحي وجوادي ورسائلي لأؤكد ثقتي فيه .. فلم يعد ! اللص ، الغشاش ، الخائن الذي لا قلب له ! » .

وينادي نابليون صاحب الفندق في غضب ، ويصيح به وهو يغالب طباعه :

« خذ هذا .. هذا الضابط ، فقدم له غذاء ، وأسلمه للفراش إذا وجدت ضرورة .. وعندما يعود إليه عقله ، أعرف منه ما حدث له ثم أحضره إلى هنا ! » .

ويلتفت إلى الضابط فينبئه بأنه في حكم المعتقل رهن التحقيق .. فيلقي هذا يده على سيفه ، وهو ماض في حديثه عن غريمه :

« لقد قال لي إنه لم يلتق قط برجل مثلي .. ووضع منديله حول رقبتي لأن بعوضة لدغتني ! » .

ويخرج الضابط منديلا معطرا ، فيقول جيسيبي لنابليون : « إنه منديل نسوي يا صاحب السعادة » ..

فيأخذ نابليون المنديل ويتأمله ، ويتشممه ، ثم يدسه في صدر سترته !

الملازم : لقد لاحظت حين مس عنقي أن له يدي امرأة .. ذلك الكلب المخنث الوضيع !

وينبعث إذ ذاك صوت السيدة النزيلة وهي تنادي صاحب الفندق ، فيرهف الضابط سمعه ، ثم يندفع فيختطف سيفه ، ويستله من غمده ،

ويمسك جيسيبى بذراعه قائلا :

« ماذا تظن أيها الملازم ؟.. إنها سيدة .. ألا تسمع ؟.. إنه صوت سيدة » !

الملازم : بل هو صوته .. دعنى !

* * *

● وتدخل القاعة سيدة طويلة ، ذات بهاء غير عادى ، ووجه ناعم ينم عن ذكاء وتفكير وتساؤل .. وقسمات دقيقة ، وأنف تشى خياشيمه بحساسية مرهفة .. أما جسمها فمتين البنيان ، يفوق جسم كل من نابليون وصاحب الفندق ، ويكاد يعادل جسم الملازم .. وأما ثوبها فيكشف عن نحر غطى بقطعة من « التل » الأصفر .. وما أن ترى الملازم ، حتى يمتقع وجهها ، بحيث ينم عن شعورها بخطر غير مرتقب ثم تتولاها فى اللحظة التالية موجة من الغضب .. ويصيح الملازم فى انتصار :

« وهكذا عثرت عليك يا فتاى .. اخلع هذا الثوب ! » .

وتستنجد السيدة بنابليون ، فيقول هذا للضابط :

« لماذا تعامل السيدة بهذا الشكل ؟ » .

الملازم : سيدة ؟! .. أنه رجل .. الرجل الذى أكدت له ثقتى فيه !

وتقف السيدة خلف نابليون ممسكة بذراعه تضمه إلى صدرها ، فيقول نابليون :

« هراء يا سيدى .. من المؤكد أنها سيدة (تفلت السيدة ذراعه وقد تضرج وجهها خجلا) . ثم إنك معتقل ، فضع سيفك » .

الملازم : أؤكد لك أنها جاسوس نمسوى .. لقد زعم لى بعد ظهر اليوم

أنه من رجال الجنرال ماسينا ، وها هو ذا يخدعك فيقنعك بأنه امرأة !

السيدة : لا بد أنه يعنى شقيقى ، فهو من رجال الجنرال ماسينا .. وهو جد شبيه بى !

ويضطر الضابط إلى الخضوع لأمر نابليون ، فيضع سيفه . بينما يقول نابليون للسيدة :

« مع احترامى لأخيك ، فإننى لا أفقه حاجة ضابط من رجال الجنرال ماسينا إلى رسائلى ! » .

ويخرج الملازم وهو يقول :

« لقد أنذرتك يا جنرال ، خذ الحذر » ..

ثم يلتفت إلى السيدة قائلا :

« اعتذاراتى يا سيدتى .. ظننتك نفس الشخص الذى أنشده ، فليس يفرق بينكما سوى أنه من الجنس الآخر ! » ..

وينحنى ليقبل يدها ، ولكنه يجفل مأخوذا ، ويروح يحملق فيها ، ثم يقول :

« إن لك نفس يد شقيقك .. ونفس خاتمه ! » ..

فتقول السيدة فى عطف :

« إننا توأمان ! » ..

ويتقبل الضابط هذا التبرير ، ويقبل اليد الممدودة إليه ، ثم يخرج مغلقا الباب خلفه ، وإذ ذاك يتخلص نابليون من ارتباكه ، ويتحول إلى السيدة باسطا يده ، قائلا :

« إلىّ برسائلى !.. هيا ! » .

وتمد السيدة يديها إلى صدرها تحميه بحركة غير إرادية !

نابليون : إنك خدعت ذلك الغبى ، وتنكرت فى زى رجل .. هاتى رسائلى !.. إنها فى صدر ثوبك ، تحت يدك !

السيدة : (**تنحى يدها عن صدرها بسرعة**) ما أقسى حديثك لى .. (**تخرج من صدر ثوبها منديلا وتمسح به عينيها وكأنها تجفف دمعة**) .

نابليون : أرى أنك لا تعرفيننى يا سيدتى ، وإلا لجنبت نفسك عناء التظاهر بالبكاء .

السيدة : (**تصطنع ابتسامة بين الدموع**) بل أعرفك .. إنك الجنرال بونابرتو الشهير (**تتعمد نطق اسمه بالإيطالية ، فيغضب وينطقه بالفرنسية . ثم يفطن إلى المنديل فينتزعه منها**) .

نابليون : (**وهو يخرج المنديل الآخر من صدر سترته**) لقد أعرت الضابط واحدا من مناديلك .. إنهما متشابهان فى النوع ، وفى العطر (**يلقى بهما على المائدة**) إننى فى انتظار رسائلى ، وسآخذها فى غير مجاملة إذا دعت الضرورة !

وتعمد السيدة إلى اللطف ، وإلى التظاهر بضعف الأنوثة ، فلما تخفق فى التأثير عليه ، تثور قائلة إن قلبها لم يعد يحتمل الرعب الذى تسببه نظراته ، وتستطرد قائلة :

« أتظن كل إنسان شجاعا مثلك ؟.. إننى لست شجاعة ، بل إننى أجفل من العنف .. إن الخطر يشقى نفسى ! » .

نابليون : (فى اغتباط) فلماذا إذن زججت بنفسك فى الخطر ؟
السيدة : لأنه لم تكن هناك حيلة أخرى . ولكن كل شيء قد فسد الآن ، لا لشيء إلا لأنك عديم الخوف ، عديم القلب ، عديم الشعور !

وتجثو أمامه ضارعة ، ولكنه يظل مصرا على أن يظفر برسائله ، ويصمد أمام نظراتها وحيرتها دون أن يلين ، فتزعم السيدة أخيرا أن الرسائل فى حجرتها ، ولكنه لا يؤخذ بحيلتها . وأخيرا تقول له :

« حسنا ، إنما أريد أن أستبقى منها رسالة شخصية صغيرة ! » .

نابليون : (فى فتور وصرامة) أوَ هذا طلب معقول !
السيدة : وهل كل طلباتك معقولة ؟.. إنك تسوق آلاف الأرواح من أجل انتصاراتك ، ومطامعك ، ومصيرك !.. أما أنا ، المرأة الضعيفة ، فلست أطلب سوى شيء تافه !.. إنك لا تعرف الخوف !

* * *

● ويشعر نابليون بأنه قد غلب ، فيجلس إلى جوارها على الأريكة .. وتنظر إليه فى خوف ، ولكن بريقا من الأمل يومض فى عينيها ، فتتحول تطرى شجاعته أثناء القتال لعبور النهر فى (لودى) قبل يومين ، فيقول لها :

« هبى أنك لم تجدى وسيلة للحصول على الخطاب إلا بأن تسعى إلىّ عبر الجسر الذى كنا نحارب للاستيلاء عليه .. هبى أن هذه كانت الوسيلة الوحيدة ، الأكيدة ، إذا استطعت أن تتفادى قنابل المدافع ، فهل كنت

تشعرين بالخوف إذ ذاك ؟ » .

السيدة : إلى أبعد الحدود .. ولكنى كنت أمضى فى سبيل بغيتى ، لأنه لا بد لى من الحصول على الخطاب !

نابليون : من أجل خطابى كنت تتحملين الخوف ؟ (**ينهض فجأة ، ويتأهب للخطابة !**) ليس هناك شعور يساور البشر جميعا على السواء ، سوى : الخوف !.. إنه الشعور الوحيد الذى تجدينه بالتأكيد فى نفس أصغر قارع للطبل فى جيشى ، كما هو فى نفسى .. إن الخوف هو الذى يدفع الناس إلى القتال ، ولكن عدم المبالاة هى التى تدفعهم إلى الفرار !.. إن الخوف هو الزر الذى يطلق الحرب من عقالها . الخوف ! إننى أعرفه أكثر مما تعرفينه أنت أو أية امرأة أخرى !.. هل منع الخوف يوما أى رجل من أن ينال ما يبغى .. أو أية امرأة ؟ مطلقا !.. تعالى معى ، وسوف أريك عشرين ألف جبان ، يقتحمون الموت كل يوم لقاء أجر لا يزيد على ثمن كأس من البراندى !.. لا ، إننى لا أهتم بخوفك أو شجاعتك !.. لو أنك اضطررت إلى أن تسعى إلىّ حين كنت فى (لودى) ، لما منعك الخوف ، فما أن تجدى نفسك على الجسر ، حتى يتبدد خوفك أمام الضرورة .. ضرورة الوصول إلى جانبى والظفر ببغيتك . وهبى أنك ظفرت بها بسلام ، وأن خوفك لم يعد خوفا ، وإنما صار قوة ، وإقداما ، ودهاء ، وعزيمة حديدية .. فماذا كنت تجيبين إذا سألك أحد عما إذا كنت جبانة ؟ » .

السيدة : إنك بطل .. بطل حقيقى !

نابليون : هراء !.. ليس هناك شيء اسمه بطل حقيقى !

السيدة : بل هناك فرق بين ما تسميه شجاعتي ، وشجاعتك .. لقد أردت أن تفوز بمعركة (لودى) لمصلحتك !

ويكاد نابليون ينزلق فى الفخ ، ولكنه يتدارك فيصيح :

« لست سوى خادم الجمهورية الفرنسية الذى يقتفى فى تواضع خطى الأبطال القدامى .. إنما أكسب المعارك للإنسانية ، ولوطنى لا لنفسى ! » .

السيدة : (فى استياء) إذن فأنت لست سوى بطل نسوى .. مثلى !.. أفتظن أننى كنت أخوض معركة من أجل تلك الرسائل لو أننى كنت أريدها لنفسى ؟.. لا !.. إن جرأتى ليست سوى عبودية .. فأنا لا أستطيع الإقدام على خوض الأهوال إلا بدافع الحب ، أو الإشفاق ، أو الرغبة فى أن أحمى أحدا سواى ! (**يشيح نابليون عنها**) .. فأنت ترى أننى لست شجاعة حقا . ولكن .. بأى حق تزدرينى إذا كنت لا تكسب معارك إلا لسواك .. إلا لوطنك ؟.. هكذا هم الفرنسيون دائما !

وينسى نابليون استياءه لأنها كانت تنطق اسمه بالإيطالية ، فينكر أنه فرنسى . وحين تراجعه المرأة يقول :

« لقد ولدت فرنسى الجنسية ، ولكننى لم أولد فى فرنسا ! » .

ثم يعود فيقول : « على أننا ينبغى أن لا نعيش لأنفسنا يا صغيرتى ، بل

To: www.al-mostafa.com

يجب أن نفكر فى الغير ، وأن نعمل من أجل الغير ، وأن نقودهم ونحكمهم فى سبيل خيرهم ، فإن إنكار الذات هو أساس كل نبل حقيقى ! » .

السيدة : (متنهدة) آه ، من السهل أن أرى أنك لم تحاوله قط يا جنرال !.. ألم تلاحظ أن الناس يبالغون دائما فى تضخيم قيمة الشىء الذى لم يتأت لهم ؟.. فالفقراء يظنون أنهم لا يحتاجون لغير الثراء حتى يصبحوا سعداء .. وكذلك يمجد كل امرىء الصدق ، والطهر ، وإنكار الذات ، لأنهم لم يحظوا بهذه الفضائل !.. لقد كان من سوء حظى أننى ولدت طيبة . فأنا صادقة ، غير أنانية حقا ، ولكن هذه الخلال كلها ليست إلا جبنا ونقصا فى الشخصية .. (**يلتفت إليها نابليون فى انتباه ، فتمضى فى حرارة مطردة**) ما سر قوتك ؟.. إنه ليس سوى إيمانك بنفسك !.. ففى وسعك أن تحارب وأن تنتصر من أجل نفسك ، وليس من أجل إنسان آخر !.. إنك لا تشعر بخوف أو قلق بشأن مصيرك ، فأنت تعلمنا ما يمكن أن نصير إليه إذا توفرت لنا الإرادة والجرأة (**تركع فجأة أمامه**) ومن أجل هذا كله بدأنا نعبدك !.. لا تحرمنى من أن أقدم لك فروض الطاعة ، فلسوف تصبح إمبراطور فرنسا !

ويرتبك نابليون ، وينبهها إلى أن فى قولها خيانة للوطن ، فتقول : « أجل ، إمبراطور فرنسا ، ثم إمبراطور أوربا .. وربما إمبراطور العالم ! » ..

وتقبل يده ، فينهضها وقد اغرورقت عيناها انفعالا .. ويربت خدها

متسائلا :

« أفنصبح صديقين ؟ » .

فتبسط له يدها فى غبطة ، وهى تهتف : « أفتدعنى أغدو صديقتك ! أواه !.. لقد أكدت ثقتى بك ! » .

وتنبهه العبارة الأخيرة ، فيجفل ، ويتولاه الغضب ، ثم يهتف :

« أكدت ثقتك بى ، لكى أؤكد بدورى ثقتى بك فأتركك تفلتين بالرسائل ! آه ، لقد جعلت من نفسى غبيا كبيرا مثل ذلك الملازم .. هات الرسائل ، أسرعى ! » .. ولا تفلح معه حيلها ، فيتأهب للانقضاض عليها ، بينما تعقد هى ذراعيها على صدرها وتقف كالشهيدة . ولكنه ـــ بما طبع عليه من ولع بالإخراج المسرحى ـــ لا يمسها ، بل يقف أمامها ، وقد عقد يديه خلف ظهره .. ويفسد بذلك دور « الشهيدة » الذى أرادت أن تمثله !.. ويقول أخيرا :

« هبى أننى تركت نفسى تنصاع للاحترام الواجب نحو جنسك وجمالك وبطولتك وكل ما إلى ذلك .. هبى أننى لا أجد سوى تلك العواطف تقف بين عضلاتى وبين تلك الأوراق التى أريدها ، ولا بد من أن أنالها .. هبى أننى قنعت بالانصراف صفر اليدين ، مع أن غايتى أصبحت فى قبضتى .. أفلا تزدريننى من أعماق أنوثتك ؟.. هل ترضى أية امرأة بأن تكون على هذه الحماقة ؟.. إن بونابرت يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الموقف ، وأن يتصرف كما تتصرف أية امرأة عند اللزوم ! » .

* * *

● وتناوله السيدة حزمة الرسائل أخيرا ، فيبادر إلى فضها وهو يلاحظ أن خاتمها قد فض قبل ذلك ، ويشرع فى فحص محتوياتها . وتقول السيدة وهى تبدى استغراقا فى التفكير :

« إننى آسفة من أجلك » . فيتطلع إليها وهو يهم بتناول أهم ورقة فى الحزمة ، ويسألها عن سبب الأسف ، فتقول :

« إننى لا أقوى على أن أراك تفقد شرفك .. وسعادتك ! » .

نابليون : أفتظنيننى كنت أصبح فيما أنا فيه لو أننى حفلت بالسعادة ؟

السيدة : ولكنك ستبدو مغفلا فى أعين أبناء فرنسا !

نابليون : (فى عجلة) ماذا ؟ (**تكف يداه عن فض الأوراق**) ماذا تعنين ؟.. أهى حيلة جديدة ؟ أفتظنين أننى لا أعرف ما تحويه هذه الأوراق ؟.. إن فيها — أولا — أنباء عن تقهقر القائد النمسوى « بوليو » .. وما أراك إلا جاسوسة أرسلك لتحولى

دون وصول الأنباء إلىّ بأى ثمن ، وكأنما هذا سينقذه منى !..
أما الأوراق الأخرى ، فليست سوى رسائل خاصة بى من باريس ، لا تعرفين عنها شيئا !

السيدة : لنقتسم الأوراق .. خذ البيانات التى جمعها لك جواسيسك عن الجيش النمسوى ، واترك لى رسائل باريس .. إن شرفى يمنعنى من أن أطلب منك أى خطاب خاص بك ، ولكن فى الحزمة رسالة مسروقة .. رسالة كتبتها امرأة إلى رجل غير زوجها .. رسالة فيها فضيحة وعار .. رسالة غرام لن تفيدك فى شىء ، وأقسم أنك لن تخسر شيئا إذا أعطيتنى إياها .. فهى لم ترسل إليك إلا لإيذاء المرأة التى كتبتها !

نابليون : إذن فلماذا لم يرسل الخطاب لزوج المرأة ؟

السيدة : (**مأخوذة**) آه !.. لست .. لست أدرى !

نابليون : إنما هى قصة بارعة لتحصلى على الورقة .. إننى ككل كورسيكى أحب القصص ، وأستطيع أن أميز بين الجيد منها وغير الجيد .. وعندما يسألك أحد مرة أخرى عن السبب فى أن الرسالة التى تشى بأية زوجة لا ترسل إلى زوجها ، قولى — بكل بساطة — إن الزوج لن يحفل بقراءتها !.. أتظنين أيتها الحمقاء أن أى رجل يحب أن يساق بضغط الرأى العام إلى أن يحدث فضيحة ، وأن يقدم على مبارزة ، وأن يهدم حياته المنزلية ، وأن يفسد حياته العملية ، بفضيحة يمكن أن يتفادى تبعاتها بأن يتجاهلها ؟

السيدة : هب أن الخطاب يمس زوجتك ..

نابليون : انك وقحة ! (يتمالك نفسه) سأصفح عنك ، ولكن .. لا تسمحي لنفسك مطلقا فى المستقبل بأن تضحى فى قصصك شخصيات حقيقية !

وتقول السيدة إن صاحبة الرسالة كانت زميلتها فى المدرسة ، وقد كتبت إليها ترجوها أن تحول دون وقوع تلك الرسالة فى يديه . فيسألها:

« ولماذا أرسلت هذه الرسالة إلىّ أنا ؟ » .

السيدة : لأنها تمس المدير « بارا » !

و « بارا » هو أحد المديرين الذين كانوا يحكمون فرنسا إذ ذاك ، وقد سجل التاريخ أن « جوزفين » — زوجة نابليون — توسطت لديه كى ينال زوجها ما نال من منصب !.. فلا عجب إذن فى أن يقول نابليون للسيدة :

« حذار ، فقد تشتطين فى تماديك .. ما الذى ترمين إليه ؟.. من تكون تلك المرأة ؟ » .

السيدة : مخلوقة تافهة ، حمقاء ، مسرفة ، لها زوج جد قدير وطموح ، يعرفها على حقيقتها تمام المعرفة ، ويدرك أنها كذبت فيما ذكرته له عن سنها ودخلها ومركزها الاجتماعى .. ويعلم أنها لا تملك أن تكون مخلصة لأى مبدأ أو أى شخص .. ومع ذلك ، فهو لا يملك أن ينصرف عن حبها .. وعن أن يستغلها لينال الحظوة لدى « بارا » !

نابليون : (فى غضب مكبوت) هذا انتقامك منى !.. إنك امرأة

بغيضة ، وقبيحة كالشيطان ! اغرب عن وجهى (**تتأمله المرأة ثم تنفجر ضاحكة**) ما الذى يضحكك ؟

السيدة : أيها الجنرال .. لكم رأيت أفرادا من جنسك يتصرفون كالأطفال ، ولكننى لم أر قط عظماء يفعلون ذلك !.. إنك رجل منكود ، فاحتفظ بخطاباتك واقرأ فيها قصة عارك .. إننى لم أعد أرى صديقتى معرضة لأى خطر ، فالواقع أنها لم تكن تفهم زوجها تماما !

وإذ تراه مترددا بين الإقدام على قراءة الرسالة والإحجام ، تقول :

« لا تخف !.. لسوف تجنى منها أشياء كثيرة مسلية .. هناك مبارزة مع بارا .. شجار عائلى .. زواج منهار .. فضيحة مدوية .. حياة عملية مشلولة النمو ! » .

وترقبه وهو غارق فى الحيرة . ولا يلبث نابليون أن يحزم أمره ، فيقدم لها حزمة الرسائل الشخصية ، ولكنها لا تمد يدها إليها ، فيلقى بالحزمة إلى الأرض ويقول :

« لم يكن لك من بغية سوى هذه الرسائل ، منذ عشر دقائق ! » .

فتقول :

« ولكنك لم تكن قد أهنتنى منذ عشر دقائق ! » .

وإذ يعتذر لها ، تسأله :

« ألا تريد أن تقرأ الخطاب ؟ » .

نابليون : ألم تقولى إنه غير موجه لى ؟.. ليس من عادتى أن أقرأ خطابات الغير !

السيدة : فى هذه الحال لا أجد مانعا من أن تحتفظ به ، فكل ما كنت أبغيه هو أن أحول بينك وبين قراءته .

* * *

● وتهم بمغادرة القاعة ، فيسد نابليون عليها الطريق ، وينادى صاحب الفندق فيأمره بأن يسوق إليه الملازم . ثم يتناول حزمة الرسائل فيدسها بعناية فى صدر سترته . وما أن يفد الملازم ، حتى يقول له :

« لم أستطع أن أحصل من السيدة على معلومات تذكر ، ولكن الرجل الذى خدعك هو أخوها بلا شك ، فقد اعترفت هى بذلك .. ومن ثم فعليك أن تبحث عنه . إن شرفك ، ومصير الحملة ، ومستقبل فرنسا ، بل أوربا ، بل الإنسانية ، قد تتوقف كلها على المعلومات التى تضمنتها تلك الرسائل .. فهى من الخطورة بحيث أن إخفاقك فى استردادها سيعرضك للهوان أمام فرقتك . إننى سأكون مسئولا عن عدم تنفيذ ما جاء بتلك الرسائل ، فلا بد لى من أن أبرهن للعالم أننى لم أتسلمها ، مهما تكن عاقبة ذلك بالنسبة إليك ! » .

وعندما ينصرف الضابط ، تتساءل السيدة عن سر تصرف نابليون ، فيطمئنها إلى أن الملازم لن يعثر على أخيها .. وإذ ذاك تقول :

« طبعا ، فليس لمثل هذا الأخ وجود ، ولكن الرسائل فى صدر سترتك ! » .

نابليون : ستجدين أن من العسير إثبات ذلك .. لقد ضاعت الأوراق !

السيدة : ولكن هذا الشاب التعس سيكون الضحية !.. إنك شديد القسوة ، فليس الرجال والنساء بالنسبة لك سوى أشياء

تستعملها لغاياتك ، ولو حطمتها أثناء هذا الاستعمال !

نابليون : من منا الذى حطم هذا الشاب ؟.. من الذى خدعه وأخذ منه الرسائل ؟

السيدة : (**وقد استيقظ ضميرها**) ما فكرت فى هذا مطلقا .. كان هذا إثما منى .. (**متوسلة**) أرجو أن تنقذه من العار .

نابليون : أنقذيه أنت ما دمت بارعة الذكاء .. إننى أكره الجندى الغر !

ويخرج نابليون إلى الحديقة . وفى تلك اللحظة يفد الضابط على القاعة ، فتبدى له السيدة إشفاقها من أن يصيب أخاها أذى على يديه ، ثم تقول :

« إذا أخبرتك بمكانه .. إذا تعهدت بأن أسلمك إياه أسيرا كى تقدمه للجنرال بونابرت ، فهل تقسم بشرفك ـــ كجندى ، وكإنسان مهذب ـــ أن لا تقسو فى معاملته ؟.. لسوف أرد إليك جوادك وسلاحك كذلك ! » .. ويطرب الضابط لهذه الصفقة ، فيحاول أن يقبلها ، ولكنها تروغ منه قائلة :

« أنسيت أن مستقبلك فى خطر .. بل مستقبل أوربا .. ومصير الإنسانية ؟ » .

الملازم : دعك من مصير الإنسانية ، وأعطنى .. قبلة واحدة !

السيدة : لن تنلها إلا إذا أبرأت شرفك كضابط !

وتعده بأن أخاها لن يلبث أن يحضر إلى القاعة بعد ربع ساعة ، وأن يسلم نفسه إليه . ثم تقول :

« والآن ، ألا ترى من الأفضل أن تعالج أمورك مع القائد ، فتحمله على أن

يعدك بأن يعتبر اعتقالك أخي كافيا لتبرئة سمعتك وشرفك .. إنه لا يحجم عن أن يعد بأى شيء فى مقابل ذلك ، ولكن .. لا تدعه يكتشف أنك ذكى ! » .

الملازم : آه ، فهمت .. إنه يغار من الأذكياء !

وترسل له قبلة فى الهواء وهى تخرج . فلا يلبث أن يفد جيسيبى إلى القاعة . ثم يعود نابليون وهو يحكم أزرار صدر سترته ، وقد شحب وجهه ، وبدا مهموما .. فيبادره الملازم قائلا :

« هب أننى ظفرت بذلك الشاب ! » .

نابليون : (فى سخرية) إنك لن تظفر به يا صديقى .

الملازم : لسوف ترى .. ولكن ، هل تعتبر المسألة منتهية إذا جئتك به ؟.. هل تعدل عن العقاب ؟

نابليون : (وقد أومض وجهه بفكاهة باردة) ماذا نفعل به يا جيسيبى ؟.. إنه يخطىء فى كل ما يقول .

جيسيبى : لنجعله جنرالا يا صاحب السعادة ، فيصبح كل ما يقوله صوابا !

ويضحك نابليون للفكاهة ، ثم يقول لصاحب الفندق : « هلا جئت معى لأجعل منك رجلا عظيما ؟ » .

جيسيبى : لا ، لا ، لا ، لا ، لا ، لا !

نابليون : (يرمقه مفكرا) أقانع أنت بحالك ؟.. أليس بين جوانحك شيطان نهم يطالب بغذاء من العمل والنصر ليل نهار ، ويضطرك إلى دفع الثمن من عرق مخك وجسدك ؟.. شيطان

هو عبدك وطاغيتك فى آن واحد .. نبوغك وهلاكك !.. يحمل لك تاجا فى إحدى يديه ، ومجذاف مركب للعبيد باليد الأخرى .. يمنيك بملك دول العالم على شريطة أن تصبح عبدا له ! (يلتفت إلى الملازم) أرجو أن لا أكون قد أثرت الطموح فى نفسك !

الملازم : مطلقا ، فلست أحلق على هذا الارتفاع الشاهق .. إننى قانع بمركزى ، لأن أمثالى مرغوبون فى الجيش .. إن الضابط الصغير مضطر إلى أن يكون سيدا مهذبا ، لأنه كثير الاتصال بالناس . أفتعرف من الذى كسب معركة (لودى) ؟.. إنه جوادى !.. إنك تذكر النار الحامية التى تبادلتها مع النمسويين عبر النهر ، فهل لاحظت أين كنت أقف ؟

جيسيبى : يقولون إن الجنرال قفز عن جواده ، وأخذ يطلق المدافع الكبيرة بيديه .

الملازم : هذا خطأ ، فلا ينبغى للضابط أن ينزل إلى مستوى رجاله (نابليون يرمقه بنظرة تنطوى على خطر) كان من الممكن أن تظل حتى الآن تصلى النمسويين نيرانك ، لولانا معشر الفرسان .. فقد خضنا جدولا جانبيا ، وانقضضنا على مؤخرة قوات الأعداء .. وإنك لتعلم أنك لم تجرؤ على إصدار الأمر بالاستيلاء على الجسر إلا بعد أن رأيتنا على الضفة الأخرى .. ومن ثم فالفضل لمن عثر على الجدول . وقد كنت أنا أول من اجتازه ، وكان جوادى هو الذى عثر عليه !

نابليون : يا لك من أحمق !.. سآمر بإعدامك لأنك أضعت الرسائل !

***

● **وهنا يدخل ضابط فرنسي شاب ، يحمل سيفا مغمدا فى قرابه ، فيقول بصوت لا يختلف مطلقا عن صوت السيدة :**

« أيها الملازم .. إننى أسيرك ! » .

ويحملق نابليون فى الضابط مشدوها ، ثم يمسك برسغه ويشده إليه ويروح يتفرس فيه مليا ، ثم يدفعه عنه فى اشمئزاز — وقد أدرك أنه السيدة بعينها :

« أين رسائلى ؟ » .

السيدة : لن يخطر مكانها ببالك قط ، فهى فى أبعد أماكن العالم عن ظنك .. ألم يقابل أحد منكم أختى هنا !.. إنها ساحرة ، وقد استطاعت أن تسحر الجنرال .. افتح سترتك يا جنرال ، تجد رسائلك فى صدرها ! (**تضع يدها على صدره**) آه ، ها هى ذى ! (**تتطلع إلى وجهه فى سخرية**) هل تسمح لى ؟ (**وتفك أزرار السترة ، فتخرج الرسائل وتدفعها نحو جيسيبى الذى يبتعد عنها خوفا من السحر ، ثم تقربها من الملازم فيمسك بسيفه قائلا :**)

ابتعد ! هاك رسائلك يا جنرال !

جيسيبى : لا تمسها يا جنرال .. أحرقها ، وأحرق الساحرة أيضا !

السيدة : (لنابليون) هل أحرقها ؟

نابليون : أجل ، أحرقيها .. جيسيبى ، أحضر ضوءا !

ولكن جيسيبي يخاف من الخروج وحيدا فى الظلام — إذ يكون الليل قد هبط فى هذه الأثناء — فيخرج معه الملازم . وتجلس السيدة بعد أن تلقى بالرسائل على المائدة ، وتقول :

« لقد هزمتك يا جنرال .. ولكن ، ألا تحب أن تقرأ هذه الرسائل قبل أن أحرقها . لا بد أنك تكاد تموت من شدة الفضول ! .. لقد قرأتها أنا ، ومن ثم فإننى أعرف ما فيها ، أما أنت فلا تعرف ! » .

نابليون : معذرة .. بل إننى قرأتها حين كنت فى الحديقة منذ عشر دقائق .

السيدة : (تقفز عن مجلسها) أواه ! .. لم أغلبك بعد ! .. انبى أعجب بك فى هذه المرة إعجابا صادقا (تقبل يده) .. إننى أريد أن أقول لك شيئا ، ولكننى أخشى أن تسىء فهمه .. إننى أعبد الرجل الذى لا يخشى أن يكون وضيعا وأنانيا .. ولست أعنى الضعة والأنانية بمعناهما المألوف ، وإنما أعنى نوعا من البساطة القوية يحيط بك .. فأنت لم تكن راغبا فى قراءة الرسائل ، ولكن الفضول ساورك ، فتسللت إلى الحديقة واطلعت عليها عندما أمنت من الأعين ، ثم عدت متظاهرا بأنك لم تقرأها .. وهذا أحقر عمل عهدته من رجل ، ولكنه كان يحقق لك غرضك ، ومن ثم لم تخش أو تخجل من الإقدام عليه !

نابليون : من أين لك بهذه التعبيرات القذرة ؟ .. هل كان جدك صاحب متجر ؟

السيدة : لا ، بل كان إنجليزيا !

نابليون : فى هذا التبرير الكفاية ، فإن الإنجليز أمة من أصحاب المتاجر !.. اسمعى ، سوف أشرح لك حقيقة الإنجليز !.. إن فى الدنيا ثلاثة أنواع من الشعوب : شعوب دنيا ، وشعوب وسطى ، وشعوب عليا .. فالشعوب الدنيا والشعوب العليا تتشابه فى شىء واحد : ذلك أنها لا ضمير لها ، ولا أخلاق .. لأن الأولى تحت مستوى الأخلاق ، والثانية فوقه . ولست أخشى النوعين ، لأن الشعوب الدنيا لا تفطن إلى أنها بلا ضمير ومن ثم فهى ترفعنى إلى مصاف الآلهة ، فى حين أن الشعوب العليا تفتقد الضمير لغير ما غاية أو غرض ، ومن ثم فهى تنحنى أمام إرادتى .. ولسوف ترين أننى أمضى فوق جميع الغوغاء وجميع الطبقات المالكة فى أوربا ، كما يمضى المحراث فوق أرض الحقل !.. على أن الخطر يتمثل فى الشعوب الوسطى ، إذ أنها تمتلك المعرفة والغاية معا . غير أن لها موطن ضعف .. ذلك هو إسرافها فى التقيد بالضمير والأخلاق !

السيدة : إذن فأنت ستتغلب على الإنجليز لأن جميع أصحاب المتاجر من الطبقة الوسطى ؟!

نابليون : لا ، فإن الإنجليز عنصر قائم بذاته . إذ ليس بينهم من ينحط إلى الدرجة التى يعنى فيها بالضمير والأخلاق ، وليس بينهم من يسمو بحيث يتحرر من ربقة الضمير والأخلاق ، .. على أن كل إنجليزى يولد وفى كيانه قوة خارقة تجعله يتوهم أنه سيد العالم ! فهو إذا أراد شيئا ، لم يصارح نفسه بأنه يريده ،

وإنما هو ينتظر فى صبر ، حتى يتسرب إلى ذهنه — بطريقة لا يدريها أحد — يقين بأن من الأخلاق ومن الواجب الدينى أن يهزم أولئك الذين يمتلكون الشيء الذى يبغيه . وإذ ذاك لا يعود ثمة سبيل إلى مقاومته !.. إنه كأرستوقراطى يفعل ما يشاء ويستولى على ما يشتهى .. وهو كتاجر يسعى وراء غايته فى دأب ومثابرة ينبعان عن إيمان دينى قوى وشعور بالمسئولية الأدبية !.. إنه لا يعجز قط عن العثور على المبرر الخلقى ، فهو — بتظاهره بأنه النصير الأكبر للحرية وللاستقلال القومى ! — يتغلب على نصف الدنيا ويضمه إلى مملكته ، ويسمى هذا استعمارا .. وهى كلمة مشتقة من « التعمير » !.. وهو إذا أراد سوقا للبضائع التى يغشها ويزيفها فى (مانشيستر) ، أرسل أحد المبشرين ليعلم أهل البلاد — التى يريد أن يتخذها أسواقا له — رسالة السلام ، فيقتل الأهالى المبشر ، وإذ ذاك ينتضى أسلحته للدفاع عن المسيحية ، فيحارب باسمها ، ويغزو باسمها ، ويستولى على السوق كجزاء من السماء !!.. وهو للدفاع عن سواحل جزيرته يضع قسا على سطح سفينته ، ويرفع علما عليه صليب فوق أعلى صار بالسفينة ، ثم يبحر إلى أقصى أطراف الدنيا ، مغرقا وحارقا ومدمرا كل من ينازعه السيادة على البحار !.. وهو يزهو بأن الرقيق يصبح حرا إذا مست قدمه أرضا بريطانية ، بينما هو يبيع أبناء الفقراء من أهله — إذا ما بلغوا

السادسة من العمر — ليعملوا فى المصانع تحت رهبة السياط ، ست عشرة ساعة فى اليوم !.. وهو يقوم فى تاريخه بثورتين ، ثم يعلن الحرب على ثورتنا الوحيدة باسم القانون والنظام !!.. ما من شيء قبيح ، وما من شيء طيب ، إلا وتجدين الإنجليز يفعلونه .. ولكنك لن تجدى قط إنجليزيا يعرض نفسه لأن يظهر بمظهر المخطيء .. فهو يبنى كل أفعالـه على أسس ومبادئ !.. إنه يحاربك بمبادئ وطنية ، ويسرقك بمبادئ تجارية ، ويستعبدك بمبادئ استعمارية ، ويعيش على عرق المومس البغى باسم الرجولة ، ويؤيد مليكه باسم الولاء ، ثم يقطع رأس مليكه باسم المبادئ الجمهورية !.. دينه دائما هو « الواجب » ، فهو لا ينسى مطلقا أن الأمة التى تهمل واجبها وتنحاز إلى الجانب المضاد لمصلحتها الخاصة ، أمة ضائعة !

السيدة : ولكننى واثقة من أننى لست من الإنجليز فى شيء ، فإن الإنجليز قوم أغبياء !

نابليون : أجل !.. بل إنهم يبلغون فى الغباء أحيانا حدا لا يفطنون معه إلى هزيمتهم !

ويخرج إلى الشرفة ، ويتطلع إلى السماء ، فتخرج السيدة وراءه ، وتضع يدها على كتفه وقد استولى عليها جمال الليل ، وشجعها ظلامه . وتسأله فى رفق :

« ما الذى تتطلع إليه ؟ » ..

فيشير نابليون إلى نجم فى السماء ، ويقول :

« نجمى ! » ..

وتتكىء على كتفه ، فيتطلعان إلى النجم لحظة ، ثم تقول :

« أتعرف أن الإنجليز يقولون إن نجم الرجل لا يكتمل إلا برباط ساق امرأة ؟ » .

نابليون : **(فى استنكار واستحياء ، وهو يدفعها عنه ويعود إلى القاعة)** يا للمنافقين ! .. لو أن الفرنسيين هم الذين قالوا هذا ، لرفع الإنجليز أيديهم فى ذعر وتظاهروا بالورع !

ويقبل جيسيبى حاملا شمعدانا ، وهو يرتجف ذعرا ، قائلا إن الساحرة قد اختفت دون أن يراها أحد تبرح المكان ! .. ويجمع نابليون الرسائل من فوق المائدة ، فتقول السيدة **(أو السيد كما كانت تبدو لجيسيبى فى الزى العسكرى)** :

« إنك لا تزال تحتفظ بالخطاب فى جيبك ! » .

فيبتسم نابليون ، ويخرج الخطاب فيضمه إلى كومة الرسائل . وتتأمل

السيدة الخطاب قائلة :

« إنه عن زوجة قيصر » .

فيقول نابليون :

« إن زوجة قيصر فوق الشبهات .. أحرقيه ! » .

ويرقب نابليون الخطاب وهو يحترق ، وقد جلس معتمداً بمرفقيه على المنضدة ، مسلماً خديه إلى راحتيه .. فإذا أتت النار على الرسالة ، نظر كل من نابليون والسيدة إلى صاحبه ، فتلتقي نظراتهما ، بينما تتسلل الستار هابطة لتحجبهما عن الأبصار !

قصة تمثيلية كبرى

الهاربة.. من الفضيحة!

(هيدا جابلر)

لعميد المسرح النرويجي

هنريك إبسن

إبسن .. فى ذكراه الخمسينية

● فى ٢٨ مايو الماضى احتفلت المحافل الأدبية فى العالم بذكرى مرور ٨٥ عاما على وفاة الكاتب المسرحى النرويجى ، بل العالمى : « هنريك إبسن » ، أحد أساطين المسرح فى العصر الحديث .. ولهذه المناسبة ، أقدم لك فيما يلى هذه المسرحية الشائقة من مسرحياته المشهورة التى كتبت لاسمه الخلود .

وقد ولد « هنريك جوهان إبسن » فى (سكيين) بالنرويج فى ٢٠ مارس عام ١٨٢٨ ، وكان أبوه تاجرا ثريا من تجار المدينة . فلما بلغ الصبى الثامنة ، أفلست تجارة أبيه ، فعاشت الأسرة منذ ذلك الحين فى فقر مدقع ، ترك آثاره فى مدارك الغلام طيلة شبابه .

وفى سن الخامسة عشرة التحق بالعمل فى صيدلية ، حيث بدأ يتتلمذ على الصيدلى ، لكن العمل لم يرض ميوله ، فوضع همه فى المطالعة وقرض الشعر ! وفى الثانية والعشرين انتقل إلى مدينة (كريستيانيا) ليطلب العلم . وفى ذلك العام مثلت مسرحيته الأولى الوطنية « كاتالين » . وفى العام التالى عين فى أحد مسارح مدينة (برجن) — كمخرج ، ومؤلف ، ومدير فنى ، ومصمم مناظر فى وقت واحد ! — فكتب للمسرح فى الثلاثة عشر عاما التالية عددا من الروايات ذات الموضوعات القومية والوطنية . وفى عام ١٨٦٤ غادر وطنه ليعيش السبعة والعشرين عاما التالية متنقلا بين روما وميونيخ ودرسدن . وفى تلك الحقبة كتب مسرحياته الاجتماعية التى خلدت اسمه ، وأهمها : بيت الدمية ، الأشباح ، أعمدة المجتمع ، عدو الشعب ، البطة المتوحشة ، سيدة من البحر ، البناء الأعظم ، و « هيدا جابلر » — التى تقرؤها فيما يلى — وتسيطر على هذه المسرحيات جميعا فكرتان : الأولى أن أهم شىء فى الحياة هو تدعيم الشخصية الفردية .. والفكرة الثانية أن أفجع شىء فى الحياة هو إنكار الحب !

وفى عام ١٨٩١ عاد « إبسن » إلى النرويج ، حيث قضى أعوامه الخمسة عشر الأخيرة . وقبيل وفاته أصيب بانهيار — جسمانى وعقلى — كامل ، جعله يعتزل الناس جميعا ، بما فيهم أسرته !

١

● « هيدا جابلر » هي مأساة امرأة تستبد بها غرائزها القوية ، ولكن تنقصها الشجاعة !.. امرأة يدفعها فضول مشئوم إلى أن ترقص على شفا تجارب تخاف أن تلقي بنفسها في خضمها !.. ونتيجة لهذه الشخصية غير المتوازنة ، تجد التعسة نفسها قد تورطت بالتدريج في « شبكة عنكبوت » من الظروف الأليمة ، تعجز عن تخليص نفسها منها !.. إنها تظل زمنا تجاهد للنجاة بنفسها ، لكن قواها تخور في النهاية .. فيسحقها قدرها !

وحين ترفع الستار ، نرى « هيدا » قد عادت لتوها من رحلة شهر العسل مع زوجها « جورج تيسمان » ، الرجل ذي الموهبة العلمية ، والشخصية غير المحبوبة !.. ونرى العمة « جوليانا » ــ عمة العريس ــ منهمكة مع الخادم في تزيين دار العروسين بالزهور ، ونعلم من حديثهما معا أن العمة قد تركت أختها المريضة وجاءت لتشرف على تنظيف الدار وإعدادها لاستقبال العروسين .. الدار التي اشترتها لهما في غيبتهما ، واضطرت لرهن معاشها الخاص كي تدبر ثمنها !.. ورغم أن « الفيللا » أكثر اتساعا وأبهظ نفقات من أن تناسب موارد العروسين ، فقد كان لا بد منها لسكنى « ابنة الجنرال جابلر » ، التي عاشت حياة مترفة للغاية في بيت أبيها ، قبل أن تتزوج ! » .

الصباح جميل مشرق الشمس .. ويدخل الزوج ــ جورج تيسمان

— إلى حجرة الاستقبال وهو « يدندن » بنغم مرح . إنه يقبل مستبشرا على حياة جديدة من البحث العلمي والاستقرار البيتي .. وتقول له العمة جوليانا فى لهجة من تغبطه : « من كان يظن يا جورج أن تكون أنت الفائز بهيدا جابلر !.. وهى التى كان يتزاحم عليها المعجبون ! » .

تيسمان : نعم ، يخيل إلىّ أن كثيرين من أصدقائى الأعزاء فى المدينة يتمنون لو كانوا مكانى !

العمة : إنك قد ظفرت بالزوجة التى كان يتمناها قلبك يا عزيزى جورج .

وفى هذه اللحظة تدخل الحجرة « الزوجة التى كان يتمناها قلبه » ، فتستدير لزوجها قائلة فى برود : « تيسمان ، لقد ترك الخادم فيضانا من أشعة الشمس يغمر الحجرة ، فهلا أسدلت الستائر ؟ إن ذلك يجعل الضوء خافتا مريحا » .

ولا تقوى العمة جوليانا على احتمال هذا البرود المفاجئ الذى شاع فى جو الأسرة ، فتضع قبعتها على رأسها وتتأهب للانصراف .. إلى منزلها الخاص . لكنها — وقد أوتيت قلبا طيبا محبا للخير — لا تنصرف قبل أن تمنح العروسين بركتها : « إن هيدا فاتنة ، فاتنة .. فليحفظها الله لجورج تيسمان » .

وتغادر العمة البيت ، وعندئذ تدخل المأساة من الباب فى صورة السيدة « تيا إيلفستيد » ، الزوجة الشابة للشريف — أو العمدة — « إيلفستيد » المتقدم فى السن ، الذى يعيش مع زوجته فى الأقاليم . وقد جاءت الزوجة إلى العاصمة لتطلب من أسرة تيسمان صنيعا غريبا ، تمهد

لشرحه بالقول إن المدعو « إيلبرت لوفبورج » قد عاد !

هيدا : لوفبورج !

مسز إيلفستيد: نعم ، ولقد انقضى على حضوره أسبوع كامل .. تصورى ! أسبوع بأكمله فى هذه المدينة الفظيعة ، بمفرده .. مع كل المغريات التى تحيط به من كل جانب !

هيدا : ولكن يا عزيزتى مسز إيلفستيد ، لماذا تبدين كل هذا الاهتمام بلوفبورج ؟

مسز إيلفستيد: لقد كان معلم الأطفال — أطفال زوجى من زوجته الأولى — فليس لى أولاد كما تعلمين .

ثم تقول محدثتها إن « لوفبورج » ، الذى كان عبقريا « بوهيميا » بطبعه ، قد استطاع بفضل تأثيرها وزوجها أن يخلد إلى الاستقرار والعمل ، فوضع كتابا ناجحا عن (الحضارة) . لكنه الآن قد غادر البلدة التى تعيش فيها أسرة إيلفستيد وعاد إلى العاصمة .. « ومن ثم أرجوك وأتوسل إليك يا مستر تيسمان أن تراقبه مراقبة دقيقة .. إنك ستعدنى بهذا ، أليس كذلك يا مستر تيسمان ؟ » .

ويعدها .. بل إنه سيكتب توا رسالة إلى « لوفبورج » يدعوه فيها إلى زيارته فى بيته الليلة !

مسز إيلفستيد: أوه ، كم هى مكرمة منك ! شكرا ، شكرا ، شكرا ! .. فالواقع أن زوجى مولع به أشد الولع !

ويمضى « تيسمان » إلى الغرفة المجاورة ليكتب الرسالة .. وفى هذه الأثناء تفلح زوجته فى أن تنتزع من ضيفتها سرها الخفى : إن مسز

إيلفستيد عاشقة لذلك الشاب « لوفبورج » .. وإن تأثيرها الساحر عليه هو الذى أخذ بيده فمكنه من أن ينبذ أساليب حياته السابقة ويعكف على تأليف كتابه الهام !

وفيما هيدا « تستجوب » مسز إيلفستيد ، تبدى اهتماما غير عادى بقصة غرام محدثتها بذلك الشاب .. ثم تسألها :

هيدا : إذن فقد استرددته ثانية ؟

مسز إيلفستيد: نعم ، هذا ما يقوله هو بالحرف الواحد ! حقا . علمنى كيف أفكر ، وأفهم أشياء كثيرة .

هيدا : إنكما فى الواقع صديقان لاثقان أحدكما للآخر !

مسز إيلفستيد: نعم ، هذا ما يقوله هو بالحرف الواحد !

هيدا : أوَ لست أنت واثقة من حبه ، حتى لو لم يقل ذلك ؟

مسز إيلفستيد: إن شبح امرأة أخرى يقف بين « لوفبورج » وبينى !

هيدا : (وهي تنظر إليها فى قلق) : ومن تكون ؟

مسز إيلفستيد: لست أدرى .

وتسمع خطوات تيسمان عائدا إلى الغرفة ، بعد أن فرغ من كتابة الرسالة إلى الشاب ، فتهمس هيدا لزائرتها :

هيدا : تذكرى ، كل هذا الحديث يجب أن يظل سرا بينك وبينى !

وفيما تتأهب مسز إيلفستيد لمغادرة الدار ، يقبل القاضى « براك » صديق الأسرة ليدعو جورج تيسمان إلى حفلة — للرجال فقط — تقام لمناسبة زواج الأخير من هيدا .. ثم يجرهما الحديث إلى الكلام عن شخصية

الشاب « لوفبورج » :

براك : أوه ، بهذه المناسبة ، سمعت ياتيسمان أن لوفبورج سوف يكون منافسك للحصول على كرسي الأستاذية بالجامعة ؟!

تيسمان : إن هذا لو صح يا عزيزي القاضي براك لينطوى على منتهى الاستخفاف بي وبمستقبلي .. إذ لا يخفى عليك أنني رجل متزوج ، والواقع أننا قد تزوجنا — هيدا وأنا — اعتمادا على هذا الأمل الذى كان يلوح تحقيقه مرجحا ، بل وتورطنا في الديون استنادا إلى هذا الأساس ، واقترضنا نقودا من العمة جوليانا أيضا .. يا إلهي ! إنهم كانوا قد وعدوني بهذا المنصب !

براك : على كل حال ، فإن من الخير أن تعرف حقيقة الموقف .

ثم ينصرف القاضي براك ، فتعود هيدا من توديعه لتقول لزوجها :

هيدا : إذن فلن أستطيع الحصول في الوقت الحاضر على خادم خاص ذى زى رسمي ، كما كنت آمل ؟

تيسمان : كلا ، لسوء الحظ .

هيدا : وجواد الركوب الذى كنت أنوى ابتياعه ، أحسب أنني ينبغي ألا أفكر في أمره الآن ؟!

تيسمان : بحق السماء ، كلا !

هيدا : حسنا ، على الأقل سيبقى لى شيء واحد ألعب به .

تيسمان : وما هو يا هيدا ؟

هيدا : مسدساتى يا جورج ، مسدسات أبى الجنرال جابلر .

٢

● فإذا كان الفصل الثانى رأينا « هيدا جابلر » تلهو بالمسدسات .. بينما ذهب زوجها تيسمان ليزور عمته .. وأقبل القاضى « براك » ليصطحب تيسمان معه إلى السهرة التى سيقيمها أصدقاؤه من الرجال ـــ فقط ـــ احتفالا بزواجه .

براك : أود لو كففت يا سيدتى عن اللهو بهذه المسدسات !

هيدا : ولكن يا عزيزى القاضى براك ، إنك لا تقدر كم بلغ بى الضجر القاتل !.. الضجر من البقاء مدى الحياة فى صحبة شخص واحد ، دون سواه !

براك : حتى إذا كنت تحبين هذا الشخص الواحد ؟

هيدا : أف .. بربك لا تلفظ هذه الكلمة التى تثير الاشمئزاز !

براك : ولكن افرضى أن شخصا ثالثا ظهر فجأة لينضم إلى صحبة الزوجين ؟

هيدا : آه ، إن هذا يكون عزاء مريحا لا شك فيه !

ويقطع عليهما خلوتهما الهادئة وصول الزوج ، الذى يدخل حاملا تحت إبطه وفى جيوبه عددا من الكتب .. فتتبادل الزوجة والقاضى براك النظرات ذات المعنى ، بينما يقول تيسمان :

« إنها بعض كتب جديدة فى الموضوع الذى أبحثه . ثم انظرا ، لقد حصلت أيضا على كتاب « لوفبورج » الجديد ! » .

وفى اللحظة التى يشرع فيها الرجلان فى الانصراف إلى حفلهما ، يدخل « لوفبورج » ملبيا الدعوة التى تلقاها من الزوج فى رسالته ، فيهنئه الجميع على نشر كتابه الجديد :

تيسمان : لقد ابتعت نسخة منه ، وإن لم أجد الوقت لقراءتها بعد .

لوفبورج : تستطيع أن توفر على نفسك هذا العناء .

تيسمان : لماذا ؟

لوفبورج : لأنه كتاب تافه ، يتحدث عن حضارة الماضى . (يخرج من جيبه مخطوطا) أما عندما يظهر هذا الكتاب يا جورج تيسمان ، فسوف يتعين عليك أن تقرأه .. لأن هذا هو كتابى الحقيقى . إنه يتناول حضارة « المستقبل » .

تيسمان : ما أغربه من موضوع !.. ما كنت لأفكر فى كتابة شىء من هذا القبيل .

هيدا : أعتقد ذلك .

لوفبورج : (وهو يضع المخطوط على المنضدة ، ملتفتا إلى الرجلين) لقد أحضرته معى آملا أن أستطيع قراءة صفحات منه عليكما الليلة .

لكنهما — الليلة — لا يملكان وقتا ينصتان فيه إلى المخطوط ، فإنهما

على وشك أن يخرجا للذهاب إلى حفلهما . ويدعو القاضي « براك » الشاب « لوفبورج » لمصاحبتهما ، لكنه يرفض . وتشجعه هيدا على الرفض :

هيدا : أنا واثقة من أن مستر لوفبورج يؤثر أن يبقى هنا ويتناول العشاء معي .

لوفبورج : (ينظر إليها) معك أنت يا مسز تيسمان ؟

هيدا : ومع مسز إيلفستيد .

لوفبورج : آه ، شكرا على الدعوة يا مسز تيسمان . سأبقى للعشاء هنا .

ويدلف القاضي « براك » و « تيسمان » إلى الحجرة المجاورة ليتناولا شرابا فاتحا للشهية قبل أن يذهبا إلى الحفلة . وتبقى هيدا ولوفبورج وحدهما :

لوفبورج : (في نعومة وصوت خفيض) هيدا .. جابلر !

هيدا : صه ؟

لوفبورج : هيدا جابلر قد تزوجت ! ومن جورج تيسمان ؟

هيدا : إنها حال الدنيا !

لوفبورج : أوه ، هيدا ، هيدا .. كيف استطعت أن تلقي بنفسك إلى مصير كهذا ؟

هيدا : لا تقل ذلك !

لوفبورج : أجيبيني على سؤال واحد يا هيدا .

هيدا : وما هو ؟

لوفبورج : ألم تكن صداقتك القديمة لى تنطوى على حب ؟

هيدا : إنى لأتساءل !.. عندما أستعيد ذكراها أشعر بأنه قد كان هناك شيء جميل ، خلاب ، جرىء ، فى تلك الصداقة التى لم يحلم بمثلها كائن بشرى !

لوفبورج : إذن لماذا قطعت صلتك بى ؟

هيدا : لأن صداقتنا أنذرت بأن تتطور إلى شيء أكثر جدية وخطرا .. واخجلتاه لك يا لوفبورج !

لوفبورج : أوه ، لماذا لم تنفذى تهديدك لى ؟ لماذا لم تقتلينى ؟

هيدا : لأنى بطبعى أرتعد خوفا من الفضيحة !

لوفبورج : نعم يا هيدا ، إنك جبانة القلب !

هيدا : وأى جبانة !

(وتنحنى نحوه، دون أن تواجهه بنظرتها، وتردف بصوت أكثر نعومة) لكنني سأدلى إليك الآن باعتراف!

لوفبورج : وما هو ؟

هيدا : كونى لم أجرؤ على قتلك يومئذ ..

لوفبورج : أكملى ..

هيدا : لم يكن ذلك أسوأ ما انطوى عليه جبنى فى تلك الليلة !

لوفبورج : (فى همس مشبوب) آه ، إذن قد كان ظمؤك للحياة ، الذى ..؟

وهنا يعلن قدوم مسز إيلفستيد ...ويتلو ذلك مشهد من الصراع النفسى المستتر ، تتمزق فيه نفس « لوفبورج » بين عاملين : احترامه

« لملهمته » مسز إيلفستيد ، وحبه المشبوب لهيدا جابلر !

وإذ ينهار تحت عبء الصراع ، يعلن فجأة أنه سيذهب إلى الحفلة :

لوفبورج : **(وهو يضع المخطوط فى جيبه بينما يدخل تيسمان)** أود أن أقرأ لك هذا .

تيسمان : هذا يكون مدعاة لاغتباطى . ولكن ، يا عزيزتى هيدا ، كيف تعود مسز إيلفستيد إلى بيتها ؟

لوفبورج : سوف أعود ثانية لأرافقها إلى دارها .. فى الساعة العاشرة .

ويخرج الرجال الثلاثة .. ثم تدخل الخادم حاملة مصباحا مضاء :

مسز إيلفستيد: أوه ، هيدا ، هيدا .. ماذا سينتج عن هذا كله ؟

هيدا : إنه سيكون هنا فى الساعة العاشرة .. وإنى لأراه منذ الآن وقد التفت شرائط الورق الملون على شعره ، واصطبغ وجهه بحمرة الخمر .. جسورا لا يهاب شيئا !

مسز إيلفستيد: أواه يا إلهى ! ليته يأتى فقط كما ترينه الآن !

هيدا : إنه سوف يأتى كما أراه ، تماما ، وليس بهيئة أخرى .

لكن لدى مسز إيلفستيد شكوكها التى تساورها !

٣

● فإذا كان الفصل التالى ، علمنا أن شكوك مسز إيلفستيد لم تكـ على غير أساس .. فنحن فى وضح النهار الآن ، ولم يعد من الحفلة أـ بعد ! .. وتقنع هيدا ضيفتها بأن تأوى إلى مخدعها لتنال قسطا من النوم .. وأخيرا يظهر جورج تيسمان ، رب البيت ، بادى الإنهاك مهموما !

هيدا : هل استمتعت بحفلة القاضى براك ؟

تيسمان : نعم ، ولا سيما فى النصف الأول من السهرة ، حين كـ « لوفبورج » يقرأ لى جزءا من مخطوطه .

هيدا : حدثنى عنه .

تيسمان : أعتقد أنه من أحسن الكتب التى وضعت فى تـار الأدب . ولكنه أمر يدعو إلى الرثاء أن يكون هـ الشاب ، مع كل مواهبه ، على هذا النحو .. غير قا للإصلاح !

هيدا : لم ؟ ماذا حدث ؟

تيسمان : لقد اضطررنا إلى أن نحمله إلى بيته ، فقد أفـرط الشراب أكثر مما يحتمل .

هيدا : وبعد ؟

تيسمان : ولكن هنا يجيء الجزء الأعجب من أجزاء القصة : لقد صادف أن كنت متأخرا فى سيرى عن الآخرين ، فماذا تظنينني وجدت فى جانب من الطريق ؟ تصورى يا عزيزتى أنى وجدت هذا المخطوط ! .. فإنه وهو مخمور أضاع هذا الكنز الثمين و لم يتنبه إلى فقده !

هيدا : ولكن لماذا لم ترده إليه من فورك ؟

تيسمان : لم أجرؤ ، فى الحال التى كان عليها .. ولكن ينبغى أن أرده إليه الآن .

هيدا : كلا ، إذن لا ترده إليه توا .. دعنى أقرأه أولا .

ويعطيها تيسمان المخطوط .. ثم يهرع إلى الخارج لزيارة عمته التى علم أنها مريضة وفى حالة سيئة للغاية .

ومن هذه اللحظة ، تتطور المأساة بخطى أسرع : إذ يصل القاضى « براك » ليقص على هيدا أنباء مغامرات لوفبورج الأخيرة ، فلقد أفلت من أصدقائه الذين حملوه إلى بيته ، ومضى إلى بيت من البيوت المريبة !

هيدا : وكيف انتهت المغامرة ؟

براك : بشجار وعراك ، ألقى على أثره القبض على لوفبورج .. ومنذ الآن سوف يغلق كل بيت محترم بابه فى وجهه !

هيدا : بما فى ذلك بيتى ؟

براك : نعم .

ولكن لا يكاد القاضى ينصرف ، حتى يدخل الشاب .. وتهرع مسز إيلفستيد خارجة من مخدع هيدا ، وهى تهتف : « آه ، لوفبورج ،

أخيرا ! » .

لوفبورج : نعم ، أخيرا .. وبعد فوات الأوان !

مسز إيلفستيد: و لم « بعد فوات الأوان » ؟ ألا تجدنى على استعداد لأن أعاونك الآن ، كما عاونتك من قبل ؟.. ينبغى أن أكون معك حين يصدر الكتاب .

لوفبورج : كتابنا لن يصدر قط .. لقد مزقت المخطوط إلى ألف قصاصة .. لقد مزقت حياتى ذاتها شر ممزق !

مسز إيلفستيد: سأظل إلى يوم مماتى يا لوفبورج ، أشعر كما لو أنك قتلت طفلا حيا !

.. كل ذلك و « هيدا » — التى سمعت كل شيء — لا تنبس ببنت شفة عن المخطوط الذى فى حوزتها !.. ولا تعيده إلى لوفبورج بعد انصراف مسز إيلفستيد !.. ويحدثها هو عنه فيقول : « إن ذلك الكتاب كان ينطوى على روح مسز إيلفستيد الخالصة ! » .. لكن هيدا لا تحرك ساكنا لرد روح صديقتها إلى لوفبورج ، وإنما — بدلا من ذلك — تعطيه واحدا من مسدساتها الخاصة : « خذ يا لوفبورج .. واستعمله » .

لوفبورج : شكرا .

هيدا : استعمله استعمالا جميلا يا لوفبورج .. عدنى بذلك !

وحين ينصرف الشاب بالمسدس ، تخرج المخطوط من درجها وتلقى به إلى الموقد ، وهى تغمغم : « إنى أحرق طفلك يا مسز إيلفستيد ! طفلك وطفل لوفبورج !.. إنى أحرق .. أحرق طفلكما !

٤

● والآن تقترب الكارثة بسرعة الإعصار !.. فلقد عاد تيسمان من زيارة عمته المريضة ، فصارحته زوجته بأنها قد أحرقت مخطوط لوفبورج : « لقد فعلتها من أجلك يا عزيزى . لم أحتمل فكرة أن يتفوق أحد عليك ، ويلقى بك إلى الظل ! » .

ويتألم « تيسمان » ، ويسر ، فى آن واحد : « يا للزميل المسكين !.. حبيبتى هيدا !.. ولكن يجب أن لا يعلم إنسان بقصة المخطوط !؟ » .

وفى هذه اللحظة تقبل مسز إيلفستيد مندفعة كالمجنونة : « أخشى أن يكون قد أصاب لوفبورج المسكين مكروه !.. فهناك شائعات مفزعة تتردد عنه اليوم فى كل مكان ! » .

وهنا يدخل القاضي براك ليعزز الشائعات : إن لوفبورج المستشفى على شفا الموت . لقد أطلق الرصاص على صدره

هيدا : على صدره ، وليس على صدغه ؟

براك : على صدره يا مسز تيسمان .

هيدا : حسنا ، حسنا ، إن الصدر أيضا موضع أخيرا ، أقدم الشاب على عمل جسور !

مسز إيلفستيد: كلا ، كلا ، لا بد أنه فعلها وهو مخمور .. حين مزق مخطوطنا !

تيسمان : إنه لأمر يؤسف له أن يرحل لوفبورج من هذا أن يخلف كتابه العظيم وراءه .

مسز إيلفستيد: لعلنا نستطيع جمع مادة الكتاب من جديد . بمسوداته جميعا .

تيسمان : فلنحاول أن نجمع شتاته ، أنت وأنا .

ويتجهان إلى منضدة في المؤخرة ، وسرعان ما يستغرقان المسودات .

هيدا : (هامسة للقاضي براك) ياله من عمل جميل لوفبورج هذا ، بطلقة في صدره !

براك : آسف إذ أصارحك بما يبدد خيالك .. فمسز إيلفستيد المسكينة آثرت طلاء الحقائق ؛ بريق !

هيدا : وما هي الحقائق ؟

براك : أولها أن لوفبورج قد مات بالفعل !

هيدا : وماذا أخفيت أيضا ؟

براك : أنه وجد قتيلا فى مخدع .. غانية محترفة !

هيدا : لكن الرصاصة اخترقت صدره ؟

براك : كلا ، بل أمعاءه .

هيدا : أية لعنة هذه التى تجعل كل شىء ألمسه يتحول إلى شىء هزلى وضيع ؟!

لكن ذلك ليس كل شىء .. فإن القاضى يذكرها بأن المحققين قد عثروا على مسدسها فوق جثة الشاب !

هيدا : وماذا يحدث إذا عرفت شخصية صاحب المسدس ؟

براك : يحدث ؟.. تحدث الفضيحة يا هيدا !

هيدا : الفضيحة !

براك : نعم ، الفضيحة .. ولكن ، لن تحدث فضيحة بالطبع

ما دمت أنا أمسك لسانى . إنى لن أتقدم بالشهادة عن شخصية صاحبة المسدس ، إذا ...؟

هيدا : إذا وضعت نفسى تحت جناحيك أيها القاضى براك .. إذا منحتك جسمى ، وصرت طوع أمرك ورهن إشارتك منذ هذه اللحظة !

براك : أيتها العزيزة هيدا .. صدقينى إننى لن أغالى فى استغلال هذا الوضع !

هيدا : كلا ، لست أستطيع احتمال مجرد الفكرة ! أبدا !

.. ولا هى تستطيع اختيار الاحتمال الآخر : الفضيحة الوشيكة الوقوع !.. ومن ثم تنظر إلى زوجها ومسز إيلفستيد المنهمكين فى مراجعة مسودات كتاب لوفبورج .. وتغمغم : « ألا يبدو لك ذلك غريبا يا عزيزتى مسز إيلفستيد ؟.. ها أنت تجلسين مع تيسمان ، كما اعتدت الجلوس مع لوفبورج ! » .

ثم تستأذن الجماعة فى أن تخلد إلى شىء من الراحة : « إنى متعبة . سأذهب إلى الحجرة المجاورة وأتمدد على الأريكة بعض الوقت » .

وتتركهم وتمضى إلى الحجرة المجاورة .. وفجأة يسمعونها وهى تعزف على البيانو لحنا لرقصة ضارية !

ثم يسمعون طلقة من مسدس !

إن خوفها من مواجهة مشكلات الحياة ، كان أقوى من حبها لمغامراتها !

(ستار)

الامبراطور الذي اعتبر نفسه "ربة الجمال" ..!
قصة تمثيلية ساخرة للكاتب الفرنسي "البير كامي"

عبرة الماضى

● أجرى عقب قيام الثورة الاستفتاء التاريخى فى حياة مصر . استفتاء الشعب فى أول دستور من وضع الشعب ، واستفتاء مصر فى أول رئيس يحكمها من أبنائها .. وكان من أنبل الظواهر التى سيسجلها التاريخ ، أن أصدرت حكومة الثورة قانون محاكمة رئيس الجمهورية والوزراء ، قبل أن تسلم مقاليد الحكم للنظام النيابى ، لتعزز الضمانات التى تكفل للشعب الدفاع عن حقوقه عند الاقتضاء .

ولقد وقفت مصر على عتبات المرحلة الجديدة من تاريخها تذكر الماضى الطويل — البعيد والقريب — السابق لثورة ٢٣ يوليه المباركة تذكر الطغاة الذين دفع بهم القدر إلى حياتها ليبلوها ويختبر روحها .. فكم فى تاريخها من طاغية زينت له الأهواء والشهوات أن السلطان معناه الحرية المطلقة بلا قيود ..

ويسرنا — ومصر تنعم بحياة دستورية سليمة تقيها كل طغيان — يقدم لك صورة لطاغية مجنون ، رسمها قلم الكاتب الفرنسى المبدع « ألبير كامى » .. طاغية عاش فى (روما) — وليس فى مصر — ولكننا نكاد نلمس بين سطور المسرحية أطياف « محمد على » و « إسماعيل » و « توفيق » و « فاروق » .. الطغاة الذين ختمنا صفحاتهم فى سجل تاريخنا .. إلى الأبد !

الفصل الأول

● ترفع الستار عن أشراف روما وقد اجتمعـــوا فى بهو قصر الإمبراطور « كاليجولا » ، يسودهم قلق شديد ، وانفعال قاس ، إذ اختفى الإمبراطور ، وأخفقت كل المحاولات فى سبيل العثور عليه . ويغلب على الأمراء الظن بأن الإمبراطور الفتى قد هام على وجهه حزنا على أخته التى ماتت .. فيقول أحدهم :

« لقد كان يحب دروسيلا .. وإذا كان قد شاركها مخدعا واحدا، فهذا أمر حدث كثيرا من قبل .. أما أن يقلب روما رأسا على عقب لأنها ماتت ، فذلك شىء لا يليق ! .. ومهما يكن من شىء فإن واجب الولاية لا يسمح بقيام علاقة غير مشروعة تأخذ طابع المآسى .. إلا فى الخفاء ! » ..

وقال « سكيبيون » ـــ أحد النبلاء ـــ :

« إن بعض المزارعين رأوا الإمبراطور فى الليلة السالفة يجرى فى جوف العاصفة ، وانني كنت معه منذ أيام ثلاثة .. « وكنت أتبعه كما تعودت أن أفعل ، وتقدم نحو جسد دروسيلا ، فمسه بأصبعين .. ثم بدا كأنه يفكر منطويا على نفسه وما لبث أن خرج فى خطو متزن ! »

وقال « شيريا » ـــ وهو نبيل آخر :

« إن الإمبراطور كان بالغا حد الكمال » .

فأجابه آخر :

« أجل .. كان كما ينبغي أن يكون : مترددا ، وتعوزه التجربة ! » ..

وعاد « شيريا » يقول :

« كان هذا الغلام يعشق الأدب .. إن يكن المرء إمبراطورا وفنانا ، فشيء لا نعقله ! » .

فقال الشريف الذى أجابه أولا :

« لننتظر ، فإذا لم يعد ، حق علينا أن نقيم غيره . فالعثور على أباطرة من بيننا أمر ليس بالعسير » !

ويفد حارس ينبئهم بأن « كاليجولا » شوهد فى حديقة القصر ، فيبادر الجميع إلى الخروج . ولا يلبث « كاليجولا » أن يفد مستخفيا ، شاردا ، قذرا ، مبتل الشعر ، ملطخ الساقين بالوحل . ويدخل « هليكون » — وهو أيضا من الأشراف — فيقف ويرقبه فى صمت ، ثم يتقدم ويحييه ، ويستدرجه إلى الحديث ، فيعلم إنه سار طويلا وراء مطلب عسير . ويسأله هليكون : « وما هو ؟ » ، فيقول كاليجولا فى لهجة طبيعية : « القمر !.. إنه أحد الأشياء التى لا أملكها » ..

ولكنه لم يستطع أن يحصل عليه !.. وكأنما لمح من نظرات « هليكون » أنه يشك فى سلامة عقله ، فيقول :

« لست مجنونا ، ولكننى لم أكن كذلك حريصا على موافقة العقل يوما !.. كل ما هنالك أننى شعرت فجأة بحاجة إلى المستحيل !.. إن هذا العالم ، بحاله الراهنة ، لا يحتمل . ولهذا فأنا فى حاجة إلى القمر ، أو إلى السعادة ، أو إلى الخلود .. إلى شيء قد يكون جنونا ، ولكنه ليس من هذا

العالم فى شىء ! » .

وينهض « كاليجولا » فى هدوء وبساطة ، فيحدق فى هليكسون ويقول :

ـــ أعرف ما يدور بخلدك .. هناك روايات تتعلق بموت امرأة ، ولكن الأمر ليس كذلك . هناك فى الواقع أيام أذكر فيها أن امرأة أحببتها يوما قد ماتت ، ولكن ، ما هو الحب ؟.. شىء ضئيل .. وذلك الموت ليس شيئا !.. إنه لا يعدو أن يكون إشارة إلى وجود حقيقة معينة تجعل القمر ضروريا لى .. حقيقة جد بسيطة ، وجد واضحة .. سخيفة بعض الشىء ، لكن اكتشافها عسير . أما تلك الحقيقة فهى : أن البشر يموتون ، وأنهم ليسوا سعداء ! » .

وهنا يقول هليكون :

« تلك حقيقة نتقبلها ، وننظم شئوننا وفقا لها ! » ..

فيجفل كاليجولا ويقول :

« إذن فكل ما حولى كذب .. إننى أريد أن يعيش القوم فى الحقيقة .. إنهم محرومون من المعرفة ، وينقصهم معلم على دراية بالموضوع الذى يتكلم فيه ! » ..

ويحاول « هليكون » أن يقنعه بأن ينال نصيبا من الراحة ، فيقول الإمبراطور :

«إذا أنا مت ، فمن الذى يعطينى القمر ؟ » .

* * *

● ويخرج الإمبراطور ، فلا يلبث « سكيبيون » أن يفد مع

« سيزونيا » ، وينكر « هليكون » أنه رأى « كاليجولا » ، ثم يخرج ، وإذ ذاك تجلس « سيزونيا » فى إعياء وتقول :

« لقد رآه أحد الحراس .. إن روما كلها ترى كاليجولا فى كل مكان ، فى حين أن كاليجولا لا يرى غير .. مِثاله ! » ..

ويسألها : « أهذا المِثال دروسيلا ؟ » .

فتقول : « من ذا الذى يستطيع أن يقول هذا ؟.. ولكنه كان فى الواقع يحبها ! » ..

فيسألها متهيبا : « وأنت ؟ » .

— أواه !.. إنما أنا الحبيبة المكتهلة !..

(وبينما يتحدث الرجل عن مناقب كاليجولا وحكمته ، تقف المرأة أمام المرآة تتأمل صورتها ، ثم تقول) : لم يكن لى قط من إلٰه سوى جسدى .. وهذا هو الإلٰه الذى أتوسل إليه اليوم ، ليعود كاليجولا إلىّ !

ويفد « كاليجولا » إذ ذاك ، فما إن يراهما حتى يهم بالخروج ، ولكن الأشراف يقبلون من الناحية الأخرى ومعهم رئيس الديوان ، الذى يعرب للإمبراطور عن قلق الجميع لغيابه ، فيقول : « وما الداعى ؟ » ..

ويرتبك رئيس الديوان ، ثم يلهمه خاطره أن يقول : « هناك من شئون الخزانة العامة ما يجب أن تراه » ..

فيلتفت « كاليجولا » إلى « سيزونيا » قائلا :

— أليست الخزانة شيئا بالغ الخطر يا عزيزتى ؟.. إن لها فائدة واقتدارا .. ولكل شىء خطره : مال الدولة ، والأخلاق العامة ، والسياسة الخارجية ، وأمداد الجيش ، وقانون الأراضى !.. كلها أمور

أساسية . إننى مطالب بأن أهتم بكل شىء ، سواء فى ذلك عظمة روما ، والتهاب مفاصلك !.. ألا اسمع يا رئيس الديوان .. سنحدث انقلابا فى الاقتصاد السياسى ، على مرحلتين .

ويصرف الأشراف ، فلا يستبقى سوى « سيزونيا » و « سكيبيون » ورئيس الديوان ، ثم يمضى فى شرح انقلابه : إن على الأشراف جميعا أن يحرموا أولادهم من ثرواتهم ويوصوا بها للدولة ، فى الحال .. وكلما دعت الحاجة ، سيق هؤلاء الأشراف إلى الموت ، بترتيب ورود أسمائهم فى قائمة خاصة .. وهو ترتيب يمكن تبديله وفقا للمناسبات !..

وإذ يحاول رئيس الديوان أن يعترض ، يصيح « كاليجولا » :

— ستنفذ هذه الأوامر دون تأخير .. لا قيمة للحياة الإنسانية إذا كانت الخزانة هى المهمة !.. إن المال هو كل شىء !.. لقد قررت أن أكون منطقيا . وما دمت أملك السلطان ، فسترون ماذا يكبدكم المنطق من عواقب . سأقضى على كل معترض .. وسأبدأ بك إذا استلزم الأمر !

وإذ يخلو « كاليجولا » إلى « سكيبيون » و « سيزونيا » تقول له هذه : « أكاد أنكرك !.. إن هذه دعابة منك .. أليس كذلك ؟ » .

فيقول : ليس تماما يا سيزونيا . إنما هذا شىء من فن التربية .. أن نجعل ممكنا ، ما ليس كذلك !

سكيبيون: ولكن هذا عبث لا يقف عند حد .. إنها تسلية مجنون !

كاليجولا: بل هى فضيلة إمبراطور !.. آه !.. ها أنذا ، أخيرا ، أعرف فائدة السلطان ، فهو يهيئ الطريق للمستحيل .. لن تكون

لحريتى حدود فى يومى هذا ، وفى كل يوم مقبل !

ويقبل « شيريا » ، فيبادره الإمبراطور بأنه لا يريد أن يراه ، لأنه لم يعد يحب الأدباء ، أو يحتمل الكذب !.. ويحاول « شيريا » أن يدافع ، فيقول « كاليجولا » :

ـــ خل عنك دفاعك ، فالقضية واضحة . لا قيمة لهذا العالم . ومن يعرف حقيقته ، ينل حريته !.. إننى أمقتكم جميعا لأنكم لستم أحرارا !.. ما من حر فى الدولة الرومانية ، سواى .. فابتهجوا ، إذ جاءكم أخيرا حاكم يرشدكم إلى الحرية !.. (لشيريا وسكيبيون) اذهبا ، فأعلنا روما أن حريتها قد ردت إليها ، وأن مع الحرية تبدأ محنة عظيمة !

* * *

● وما إن يخرج الرجلان ، حتى تبكى « سيزونيا » وهى تقول إن موت « دروسيلا » قد بدله ، فيهتف بها : « أيتها الحمقاء !.. ألا يمكن أن تتصورى رجلا يبكى لسبب آخر غير الحب ؟.. إنما يبكى الرجال لأن الأمور ليست كما ينبغى أن تكون ! » .

سيزونيا : فى مثل سنى ، يعرف الإنسان أن الحياة ليست طيبه . ولكن ، إذا كان الشر موجودا على الأرض ، فلماذا نضيف إليه شرا جديدا ؟!

كاليجولا : إننى أحس بكائنات لا أعرف لها أسماء تضطرب فى داخلى ، فماذا أملك حيالها ؟.. كنت أعرف أن الإنسان عرضة لليأس ، ولكننى كنت أجهل ما تعنى هذه الكلمة .. كنت أعتقد ـــ كغيرى ـــ أن هذا مرض يصيب النفس ، ولكن ..

لا ، إن الجسد هو الذى يتألم .. جلدى يؤلمنى ، وصدرى .. وأطرافى .. رأسى أجوف ، وإنى لأشعر بالغثيان .. وأشد ما يضايقنى هو هذا المذاق فى فمى .. إنه ليس مذاق الدم ، ولا الموت ، ولا الحمى .. وإنما هو كل هذه مجتمعة !.. لكم هو قاس ، مرير ، أن يصبح المرء رجلا !.. ماذا يجدينى العزم ، أو ينفعنى السلطان ، إذا لم يكن بوسعى أن أغير من طبيعة الأشياء .. أن أجعل الشمس تغرب فى الشرق ، والألم يتناقص ، والأحياء بمنجاة من الموت !!

سيزونيا : ولكن هذا طموح إلى مراتب الآلهة .. وما أعرف أشد من هذا جنونا !

كاليجولا : أنت أيضا تعتقدين أننى مجنون !.. إن ما أريده اليوم ، بكل قواى ، لشىء يسمو على الآلهة .. إننى أتولى شئون مملكة ، صار فيها المستحيل ملكا !.. أريد أن أمزج السماء بالبحر ، والجمال بالقبح ، وأن أطلق الضحك من أعماق الألم !.. وعندما يتحقق المستحيل على الأرض ، ويستقر القمر بين يدى ، فلعلنى أتبدل والعالم معى ، وإذ ذاك يخلد البشر — أخيرا — ويسعدون !

وتقول له : « إنك لن تملك أن تنكر الحب » ..

فيهزها ، ممسكا بكتفيها ، ويقول : « الحب يا سيزونيا ؟.. لقد عرفت أنه لم يكن شيئا ، وأن صاحب الحق فى كل تقدير هو الخزانة العامة !.. آه ، الآن أوشك أن أحيا ، فى آخر الأمر !.. أحيا ، يا سيزونيا .. أحيا ،

وهذا نقيض الحب .. أنا الذى أقول لك هذا ، وأنا الذى أدعوك إلى احتفال .. إلى محاكمة عامة .. إلى أجمل المشاهد ! » .. ويروح يدق الطبل ، طالبا المذنبين ، ومن قضى عليهم بالموت ، والجمهور .. « أريد جمهور شعبى ، قضاة ، وشهودا ، ومتهمين .. كلهم قد حكم عليهم مقدما !.. أواه يا سيزونيا ، سأريهم ما لم يروا قط .. سأريهم الإنسان الحر الوحيد فى الدولة !.. وأنت يا سيزونيا ، أقسمى أن تساعدينى .. ستكونين قاسية ، باردة ، شديدة الغضب .. وستألمين أيضا ! » ..

فتقول : « أجل يا كاليجولا .. ولكننى سأصبح مجنونة ! » .

ويفد الأشراف ورجال القصر مذهولين ، فيدعوهم للاقتراب ، ويأخذ بيد « سيزونيا » فيقودها إلى المرآة . وبضربة مجنونة ، يمحو صورته بالمقرعة عن السطح المصقول وهو يضحك قائلا : « ها أنت ذى ترين أن لم يعد هناك شىء .. لم تعد هناك ذكريات .. هل تعرفين ما الذى بقى ؟ » ..

وبتخذ مظهرا جنونيا ، فتهتف مذعورة : « كاليجولا ! » ..

فيضع أصبعه على المرآة ، وتجمد حدقتاه فجأة ، ويهتف فى انتصار : « كاليجولا ! » .

الفصل الثانى

● ويجتمع الأشراف ــ بعد سنوات ثلاث ــ لدى « شيريا » يتبادلون الشكوى مما يتعمده الإمبراطور من تحقيرهم والتعسف فى معاملتهم .

ويقول أحدهم : « لقد اغتصب عقارك يا باتريكيوس ، وقتل أباك يا سكيبيون ، وسلبك امرأتك يا أوكتافيوس ، وقتل ولدك ياليبيدوس .. أتحتملون هذا ؟.. أما أنا ، فقد اخترت طريقى » ..

فيقول سكيبيون : « وبقتله أبى ، اختار بنفسه طريقى ! » .

وتشتد حمية القوم وثورتهم ، ويهمون بأن ينطلقوا ليقتحموا القصر ليفتكوا بالإمبراطور « النذل ، السفيه .. وأكثر الطغاة جنونا ! » ..

ولكن « شيريا » يقول لهم : « لا .. إنه ليس كامل الجنون ، وما يزعجنى منه سوى أنه يعرف ما ينبغى !.. إنه يضع سلطانه فى خدمة شهوة جد عارمة ، وجد فتاكة .. إنه يهددنا فى أعمق سرائرنا . ولا شك فى أن هذه ليست أول مرة يتاح فيها لرجل من بيننا سلطان غير محدود ، ولكنها أول مرة يستغل فيها السلطان على نطاق لا حد له .. إنه ينكر الإنسان والعالم ، وهذا ما يملؤنى رعبا .. وهذا ما أريد مقاومته !.. أن نرى إحساسنا بالحياة يضمحل ، وغاية وجودنا تختفى ، فهذا ما لا أحتمله ! » .

ويهتف أحد الأشراف : « الثأر ذاته غاية ! » .

شيريا : وإنى مشاطركم إياه ، ولكن هذا لن يكون لدفع ما يحيق بكم من إهانات تافهه ، وإنما هو كفاح ضد فكرة كبرى ، فى انتصارها نهاية للعالم !.. إننى لا أقبل أن يعمل كاليجولا على تحقيق أحلامه .. فهو يحول فلسفته إلى جثث .. وهى — لتعاستنا — فلسفة بغير موضوع !.. ينبغى أن نعمل !.. ولكنكم لن تحطموا هذا الظالم عندما تواجهونه وهو فى عنفوان بأسه .. بل لا بد من التذرع بالحيلة أمام إرادة الشر المطلقة . يجب أن نذكى فيه هذه الإرادة ، ونتربص حتى يصبح منطقه ذاك جنونا !.. ولكننى لن أظل معكم إلا إلى أجل ، فما أريد سوى أن أجد السلام من جديد ، فى عالم قد عاد ملتئم الشمل . ليس الذى يدفعنى إلى العمل هو الطموح ، ولكنه الخوف .. الخوف من ذلك الخيال الجامح ، المستبد ، الذى لا يقيم لحياتى وزنا !.. أجل ، لنترك لكاليجولا الحبل على الغارب ، بل لندفعه فى هذا الطريق ، حتى نجعل من جنونه حقيقة ملموسة ، ولن يلبث أن يحين يوم يصبح فيه وحيدا تجاه دولة مليئة بالموتى وأبناء الموتى !

* * *

● ويكف القوم عن الكلام ، إذ يدخل « كاليجولا » و « سيزونيا » ، يتبعهما « هليكون » ونفر من الجنود . ويطيل الإمبراطور التفرس فى المتآمرين ، ثم يخرج . فتقول « سيزونيا » باسمة :

« لعلكم تتضاربون ؟.. يحسن أن تعيدوا تنظيم المكان ، فإن كاليجولا يبغض الفوضى » !..

ويقول هليكون : « سينتهى بكم الأمر إلى أن تخرجوا الرجل عن طوره .. لقد تآمرتم قليلا بالطبع .. إنه يعرف ما تصنعون ، ولكننى أحدس أن هذا يشجعه بعض الشيء .. لنتعاون على إعادة النظام ! ولا يلبث أن يعود « كاليجولا » ، فيقول : « إن عملا ينتظرنى أيها السادة ، لكننى قررت أن آخذ قسطا من الراحة أولا ، عندك يا شيريا ، وأمرت بإحضار الطعام .. وقد سمحت لنفسى بدعوة امرأتك ياموكيوس .. أما روفيوس ، فمن حظه أن أحسست بجوع ملح .. إنه الفارس الذى ينبغى موته .. ألا تسألوننى لماذا ينبغى موته ؟.. (**وتعد المائدة فى تلك الأثناء ، فيقبل على الأكل**) .. ستدركون فى النهاية أن ليس من الضرورى أن يقترف المرء شيئا لكى يستحق الموت ! » .

ويضطر الآخرون إلى أن يتناولوا الطعام معه ، وهو غير مكترث لآداب المائدة ، ولا لقواعد الذوق . ولا يلبث أن يلتفت إلى « ليبيدوس » قائلا : « إنك تبدو منحرف المزاج ، فهل يكون هذا لأننى قتلت ولدك ؟ » .

ويبادر الشريف إلى إنكار هذا ، فيقول الإمبراطور : « آه !.. لكم أود أن يكذب الوجه شجون القلب .. فليس هناك من هو أعز إلى نفسى منك .. لنضحك معا .. اسمع الآن (حالما) كان هناك إمبراطور مسكين لا يحظى بحب أحد ، فى حين أنه كان يحب ليبيدوس ، فقتل ولده ليتلاشى هذا الحب !.. شيء مضحك .. ألا يضحك أحد ؟.. (فى غضب

محتدم) أريد أن يضحك الجميع ، وأنت يا ليبيدوس ! » ..

وينهض الجميع ، وهم يتحركون كالدمى ، بينما يتمرغ « كاليجولا » فى مقعده من شدة الضحك ، ثم يقول لموكيوس : « حدثنا عن امرأتك ! » ..

وتبدو الحيرة على أسارير الرجل ، بينما يربت الإمبراطور كتف امرأة موكيوس وهو شارد البال ، ثم يقول : « لقد كنتم تتآمرون على ، عندما أقبلت .. أه ؟.. لا أهمية لهذا ، فأنتم عاجزون عن القيام بعمل يحتاج إلى شجاعة .. إنما خطر لى أن هناك من شئون الدولة ما يحتاج إلى أن ننظر فيه . ولكن . لنعرف أولا كيف نستجيب للرغبات الملحة التى تخلقها فينا الطبيعة ! » ..

ويجذب زوجة موكيوس إلى مكان مجاور !

* * *

● ويسود القاعة صمت واجم . ويقدم « موكيوس » خمرا إلى « سيزونيا » وهو مغلوب على أمره ، بينما يشرع الآخرون فى تملق « كاليجولا » لديها ، فيقترح بعضهم أن يسجل آراءه . وتجيب سيزونيا قائلة : « ستذهلون إذا ما عرفتم أنه فكر فى هذا، وانه يكتب الآن بحثا عظيما ! » ..

ولا يلبث أن يعود كاليجولا ، فيقول لموكيوس : « ها أنا ذا أعيد إليك زوجتك ! » ..

ثم يخرج ، بينما يقف موكيوس شاحب الوجه ، وقد علق بصره بالباب الذى اختفى كاليجولا خلاله . ولكن هذا سرعان ما يعود ، فيعلن أنه أمر

بإغلاق مخازن الغلال ، لتسود المجاعة فى اليوم التالى . ويهم رئيس الديوان بالاعتراض ، ولكن الإمبراطور يصيح : « أقول إنه ستكون ثمة مجاعة غدا .. العالم كله يعرف المجاعة .. إنها محنة .. وسأضع للمحنة حدا ، عندما يروق لى .. ومع ذلك ، فما أقل ما أجد من وسائل للدلالة على حريتى .. إن المرء يحقق حريته على حساب غيره ، وهذا شىء بغيض ، ولكنه طبيعى ومألوف .. لنأكل يا سادة ! » .

ثم يعلن إليهم أنه يعد بحثا فى « الإعدام » اعتزم أن يناقشه معهم ، ويطلب إلى « هليكون » قراءة الفقرة الأولى من القسم الثالث منه ، فيتلو الرجل : « إن الإعدام يريح وينقذ .. إنه إجراء شامل يكفل القوة ، ويوافق العدل تطبيقا ومقصدا .. فالمرء يساق إلى الموت لأنه مذنب ، وهو مذنب لأنه تابع لكاليجولا ، وما دام الناس كلهم أتباعا لكاليجولا ، فهم — والحال هذه — مذنبون جميعا ، وبالتالى فقد حق عليهم الموت . هذه مسألة وقت وصبر ! » .

ويستبقى « كاليجولا » بعض الأشراف ، ليبحث معهم أمرا كان يشغل باله .. فإن تنظيم المتجر الذى أنشأه لحسابه غدا مبعث هم كبير له .. فتقترح « سيزونيا » فى النهاية أن ينشئ وساما جديدا ، يمنح لأكثر المواطنين ترددا على متجر كاليجولا ، على أن يمنح فى كل شهر مرة ، ومن لا يفوز بالوسام مرة — على الأقل — خلال اثنى عشر شهرا ، ينفى أو يعدم !..

وفجأة ، يفيق كاليجولا المخمور ، فينظر إلى أحد الأشراف .

كاليجولا : ماذا تشرب يا ميريا ؟

ميريا : إنه دواء للربو يا مولاى ..

كاليجولا : بل هو ترياق للسم !.. إنك تخشى أن أدس لك السم .. إنك تتهمنى وتسىء الظن بى .. ترتاب فى ، وتتوجس منى .. إذا كنت تتعاطى ترياقا ، فأنت ترى عندى نية تسميمك !

وعبثا يحاول الرجل أن ينفى عن نفسه هذا الاتهام ، فيقول الإمبراطور : « منذ اللحظة التى اعتقدت فيها أننى قررت تسميمك ، أصبحت تناهض إرادتى .. وهذا يجر إلى إحدى جريمتين : إما أننى لم أكن أنتوى قتلك ، فأنت تتجنى على ، أنا إمبراطورك .. وإما أننى كنت أعتزم هذا ، وأنت — أيتها الحشرة ! — تعترض مشروعاتى !.. وثمة جريمة ثالثة ، هى أنك تعتبرنى أبله ! » ..

ويدفع إليه بزجاجة السم ويأمره بأن يشرب ما فيها . وإذ يأبى الرجل ويعارض ، يطرحه الإمبراطور على مقعد منخفض ، وبعد صراع يدس القنينة بين أسنان « ميريا » ويهشمها بقبضة يده . وبعد اختلاجات ، يموت « ميريا » ووجهه ينضح ماء ودما !

ويدفع « كاليجولا » بزجاجة « ميريا » إلى « سيزونيا » متسائلا : « أهذا ترياق ؟ » ..

فتجيب : « كلا .. بل هو دواء للربو » !..

وينظر كاليجولا إلى جثة ميريا قائلا : « لا بأس ، فالنهاية واحدة ، سواء تقدمت قليلا ، أو تأخرت قليلا ! » ..

ويخرج كاليجولا . وإذ ذاك يجتمع شمل المتآمرين ، فتسأل « سيزونيا » الشاب « سكيبيون » وهى تحدق فى عينيه : « أتريد أن تقتله ؟ » .

سكيبيون: أجل .. أن أقتله أو أقتل أنا .

سيزونيا : لن أغدر بك ، ولكنى أريد أن أخاطب خير ما فيك .

سكيبيون: خير ما فى هو حقدى !

سيزونيا : فكر أولا فى وجه أبيك المشوه ، وقد انتزعوا منه اللسان .. فكر فى ذلك الفم المليء بالدم ، وفى صرخة الحيوان المعذب التى انطلقت منه .. ثم فكر فى كاليجولا .. حاول أن تفهمه !

* * *

● ويلتقى « كاليجولا » والشاب .. فيتساءل الأول عن آخر أشعار الثانى ، ويجيب « سكيبيون » بأنها كانت عن الطبيعة ، ثم يقول فى لهجة ساخرة : « إنها تعزينى عن أننى لست قيصرا .. إنها أبرأت عندى جراحا بالغة الخطورة ! » .

كاليجولا: جراحا ؟.. تقولها متخابثا !.. أذلك لأننى قتلت أباك ؟..

آه ، لو عرفت مدى صدق هذه الكلمة : جراحا !.. ليس هنالك ما يجعل الناس أذكياء ، قدر البغضاء !

ويحاول « كاليجولا » أن يحمل الشاب على أن يروى له قصيدته ، فيزعم « سكيبيون » أنه نسيها .. ويقول أخيرا : « لقد تكلمت عن توافق ما .. » .

كاليجولا: بين الأرض والقدم التى تطؤها ؟

سكيبيون: أجل ، وسلسلة التلال الرومانية أيضا !.. وذلك السكون العابر ، المثير ، الذى يسبق المساء .

كاليجولا: وفرقعات السياط فى جو الحقول ؟

سكيبيون: أجل ، وتلك اللحظة الجليلة التى تنقلب السماء الذهبية فيها فجأة ، فترينا وجهها الحافل بالنجوم الساطعة .. ولكن ، كيف عرفت هذا ؟

كاليجولا: (**يضمه قائلا**) ربما كنا نحب عين الحقائق !

سكيبيون: (**يخفى رأسه مقشعرا فى صدر كاليجولا**) أواه .. ماذا يهم ، وكل شىء يتخذ فى نفسى صور الحب ؟!

كاليجولا: هذه فضيلة القلوب الكبيرة .. ليتنى أستطيع — على الأقل — أن أستشف نفسك !.. ولكننى أعرف قوة حبى للحياة .. إنه حب لا يكتفى بالطبيعة .. لن تستطيع أن تفهم هذا ، لأنك من عالم آخر . إنك نقى فى الخير ، وأنا .. نقى فى الشر !.. إن شعرك ولا بد جميل ، ولكن ، ينقصه الدم .

ويتراجع الشاب مذعورا ، محملقا فى كاليجولا فى ذعر ، ثم يقول :

« أى قلب نتن ، دام !.. أى شر وأى حقد يعذبانك !.. لكم أرثى لك .. ولكم أبغضك ! » ..

ويحاول كاليجولا أن يحمله على السكوت ، ولكنه يمضى قائلا :
« وأية عزلة مدنسة .. عزلتك ! » ..

فينطرح عليه كاليجولا ويمسك به من طوقه ، ويهزه قائلا :

— العزلة ؟!.. أتعرفها أنت ؟ إنما هى للشعراء والعاجزين .. أنت لا تعرف إلا نوعا واحدا منها ، هيهات أن يجده المرء . إن أثقال المستقبل ، والماضى معا ، ترافقنا !.. الذين قتلناهم يعيشون معنا ، وهؤلاء أمرهم يسير . أما أولئك الذين أحببناهم ، والذين لم نحبهم ولكنهم أحبونا .. والشجى ، والرغبة ، والمرارة ، والحلاوة ، والغوانى ، والآلهة .. آه لو أننى أستطيع أن أتذوق — على الأقل — الحقيقة ، والصمت ، واهتزاز الشجر ، بدلا من هذه العزلة المريرة ، الحافلة ، التى تضمنى وحدى !.. إنها غاصة بصريف الأسنان ، وأصداء الضجيج والصيحات المكروبة .. بالقرب من النساء اللواتى أغازلهن ، وقد أطبق الليل علينا أستاره ، وبدا لى — وأنا أتخلص من جسدى الذى نال أخيرا كفايته — أننى أمسك ببعض نفسى بين الحياة والموت .. إذ ذاك ، تمتلئ عزلتى برائحة اللذة الكريهة ، عند إبطى المرأة ، التى تتهاوى بدورها إلى جانبى !

ويبدو منهكا ، فيتردد سكيبيون ، ثم يتقدم من خلفه ، فيضع يدا على كتفه ويقول : « لكل إنسان فى حياته سلوى تكون بمثابة الواحة الوارفة ، يستظل بها كلما قسا عليه الهجير .. أليس فى حياتك إذن ما يشبه هذا ؟ » .

كاليجولا : إنه موجود .. (فى بطء) إنه .. الاحتقار !

الفصل الثالث

● وترتفع الستار فى الفصل الثالث عما يشبه العرض المسرحي .. دفوف تدق ، و « هليكون » ينادي فى الناس .. إن الآلهة عادت إلى النزول على الأرض ، إذ أعارها « كايوس ، القيصر والإله الملـقب بكاليجولا » ، صورته البشرية !..

وتدعو « سيزونيا » الناس إلى أن يقبلوا فيدفعوا دراهمهم ليتعبدوا .. « فإن الأسرار العلوية أصبحت اليوم فى متناول الفقير والغنى ! » .. ثم تجذب الستار ، فيبدو « كاليجولا » فى زى « فينوس » وقد وقف على قاعدة تمثال .. وتصيح « سيزونيا » : « الآن تبدأ العبادة .. خروا سجدا » .

ويسجد الأشراف جميعا ، ماعدا « سكيبيون » ، ويرددون وراءها صلاة « كاليجولا ـ فينوس » .. صلاة مخبولة ، يدعون فيها « فينوس » قائلين : « علمينا التغاضى الذى يجدد الحب .. أرشدينا إلى حقيقة هذا العالم .. الحقيقة التى لا نعلم منها شيئا !.. املئينا من عطاياك ، وانشرى على وجوهنا قسوتك الشاملة ، وبغضك الذى يتغلغل فى ذات الأشياء !.. ابسطى فوق عيوننا يديك المملوءتين زهرا وموتا .. أسكرينا من خمر مساواتك ، وأشبعينا على الدوام ، من قلبك الأسود الذى له طعم الملح ! » .

وعندما يفرغون من الصلاة ، يهتف كاليجولا : « أحسنتم يا أبنائى .. ستجاب دعواتكم ! » ..

ويضعون دراهمهم ثم ينصرفون ، فيقول كاليجولا : « لو لم يكن للآلهة من ثروة سوى حب الفانين ، لأصبحوا فقراء مثل كاليجولا المسكين .. أذيعوا فى المدينة أنباء المعجزة الرائعة .. لقد رأيتم فينوس بأعينكم .. ولقد تحدثت إليكم فينوس ! » .

ويقف « سكيبيون » أمام « كاليجولا » ، وإلى جواره هليكون وسيزونيا .

سكيبيون : لقد كفرت يا كايوس ، إذ تدنس السماء ، بعد أن أدميت الأرض !

سيزونيا : ألا اعلم أن فى روما أناسا يساقون إلى الموت فى هذه اللحظة ، من جراء أحاديث أقل بيانا من حديثك !

كاليجولا : أتؤمن بالآلهة إذن يا سكيبيون ؟

سكيبيون : كلا .. ولكنى أستطيع أن أنكر الشيء دون أن أضطر إلى تدنيسه ، أو انتزاع الإيمان به من الآخرين !

كاليجولا : إن جل ما يؤخذ على اليوم ، هو أننى أحرزت تقدما يسيرا فى طريق السلطان والحرية !.. إن فى منافسة الآلهة — عند رجل يحب السلطان — شيئا مثيرا ، ولكنى وضعت حدا لهذا ، إذ برهنت لتلك الآلهة المضللة على أن الإنسان يستطيع ، إذا شاء ، أن يمارس — وبغير تدريب ! — حرفتهم المضحكة .. لقد أدركت فى يسر أن ليس ثمة إلا طريقة واحدة للمساواة

بالآلهة .. يكفي أن يكون المرء مثلها قاسيا !

سكيبيون : يكفي أن يجعل من نفسه طاغية !

كاليجولا : وما عسى أن يكون الطاغية ؟

سكيبيون : نفس عمياء !

كاليجولا : بل رجل يضحي شعوبا في سبيل مثله العليا . وأنا رجل لا مثل لديه ، فليس ما يدعوني إلى الجد في طلب المجد والسلطان .. وإذا كنت أمارس هذا السلطان ، فعلى سبيل التعويض .. التعويض عن بلادة الآلهة وبغضائها !

ويقول « سكيبيون » إنه لا سبيل للتعويض إلا بالفقر ، وبالكف عن القضاء على من حوله من الرجال .

فيقول « كاليجولا ، إنه تحاشى ثلاث حروب ، لأنه .. يحترم الحياة الإنسانية !..

« أو على الأقل ، أحترمها أكثر مما أحترم فكرة مثالية عن الغزو .. ولكن من الصحيح كذلك أنني لا أحترمها أكثر مما أحترم حياتي الخاصة .. وإذا كان يسيرا على أن أقتل ، فما هو بالعسير على أن أموت .. إنني كثيرا ما أفكر في هذا ، فأقتنع بأنني لست طاغية ! » ..

ويمضي « كاليجولا » في الحديث عن « شطحات » خياله ، قائلا : « إن القدر عسير على الفهم ، وهذا هو السبب في أنني جعلت من نفسي قدرا ! » ..

وإذ يجيبه « سكيبيون » بأن هذا هو التجديف بعينه ، يقول كاليجولا : « كلا .. هذا هو الفن الدرامي !.. إن خطأ أولئك الناس

جميعا ، هو عدم الإيمان الكافى بالمسرح ، ولولا ذلك لعرفوا أن من المباح لكل إنسان أن يمثل الفواجع السماوية ، وأن يصبح إلـٰها » !

سكيبيون : لا بد أنك قد فعلت إذن ما يلزم لكي تنهض حولك — يوما ما — طوائف من الآلهة البشرية ، التى لا ينطفئ لها هى الأخرى ضرام ، فتغرق فى الدم ألوهيتك الموقوتة !

* * *

● وما أن ينصرف « سكيبيون » حتى يأخذ « كاليجـولا » فى الإلحاح على هليكون بأن يأتيه بـ .. القمر ! فيقول هليكون : « لنوقف هذه اللعبة يا كايوس ! » .

وينبئه بأن القوم يتآمرون عليه . ولكن الإمبراطور يمضى فى هذيانه الجنونى ، فيترك له هليكون وثيقة اختلسها ، تتضمن سر المؤامرة ، ثم ينصرف . ولكن « كاليجولا » لا يخلو إلى نفسه ، إذ لا يلبث أن يأتيه الشريف الشيخ ، الذى كان من المتحمسين للتخلص منه ، كى يشى له بأن القوم يريدون قتله !

كاليجولا : أتعرف لماذا لا أستطيع أن أصدقك ؟.. لو كان ما تقوله حقا ، فقد وجب على أن أحدس أنك تخون أصدقاءك .. إننى كرهت الجبن ، حتى لم أعد أستطيع أن أمتنع عن قتل أى خائن !

ويحاول الرجل أن يؤكد له أنه ليس خائنا ، وأنه فى الوقت ذاته يحبه ، فيقول كاليجولا : « إنك لست رعديدا .. أليس كذلك ؟.. ولا أنت بخائن .. فالنتيجة إذن ، أن لا مؤامرة هناك ! » ..

ويطرده ليفرغ إلى الوثيقة التى تركها هليكون ، ثم يطلب استدعاء

« شيريا » . وما أن يخلو إلى نفسه ، حتى يتأمل صورته فى المرآة قائلا : « لقد قررت أن تكون منطقيا أيها الأبله ، فحسبك أن ترى إلى أين يقودك هذا ؟.. لو أنهم جاءوك بالقمر ، لتغير كل شيء .. لأصبح المستحيل ممكنا .. (يتلفت حوله) الناس يتناقصون حولى .. فيض من الموتى .. حتى لو أنهم حملوا القمر إلى ، فلن يكون بوسعى أن أعود إلى الوراء .. ولو عاد الموتى فتحركوا من جديد تحت أشعة الشمس ، فإن عدد من يموتون من الناس لن يقل عن عدد من سيعودون منهم إلى الحياة !.. (فى غضب) المنطق يا كاليجولا !.. يجب اتباع المنطق !.. لن تعود إلى الوراء ! » .

* * *

● ويأتى « شيريا » فلا يحسن استقباله ، ولكنه لا يلبث أن يدعوه إلى حديث ودى ، ويسأله عما إذا كان يعتقد أن بوسع رجلين — أوتيا نوعا واحدا من الروح والكبرياء — أن يتجردا من كل رياء وغرض وكذب ، فيتكلما من صميم القلب ؟.. ثم يسأله : « لماذا لا تحبنى ؟ » .

شيريا : لأنه ما من شيء يستحب فيك .. ولأن الإنسان لا يستطيع أن يحب فى غيره ما يحاول أن يخفيه فى نفسه !

كاليجولا : ولماذا تكرهنى ؟

شيريا : تخطيء !.. فلست أكرهك ما دمت لا أراك سعيدا .. ولا أستطيع أن أحتقرك ما دمت أعرف أنك لست رعديدا !

كاليجولا : فلماذا تريد أن تقتلنى ، إذن ؟

شيريا : لأنى أراك مؤذيا ، وأنا أميل بطبعي إلى الأمان .. وأكثر الناس مثلى .. فهم يعجزون عن العيش فى عالم يتاح فيه لأكثر الأفكار شذوذا أن تدخل فى الحقيقة دخول الخنجر فى القلب !

كاليجولا : ولكن الأمان والمنطق لايتفقان . إنك ذكى ، والذكاء إما أن يدفع غاليا ، وإما أن ينكر ذاته . فما بالك لا تنكرها ، ولا تدفع الثمن ؟

شيريا : لأننى أريد أن أعيش ، وأن أكون سعيدا ، وعندى أن الإنسان لا يستطيع أن يكون هذا ، ولا أن يكون ذاك ، وهو يضع المستحيل نصب عينيه . إننى — لكى أستشعر الحرية — أتمنى أحيانا الموت لمن أحب ، وأشتهى من النساء من تحرم على قوانين الأسرة أو التزامات الصداقة اشتهاءهن ، فلكى أكون منطقيا، يجب على أن أقتل ، أو أن امتلك ما أشتهى . ولكنى أعتبر هذه سوانح ليست بذات خطر ، إلا أن يجعل الناس همهم إلى تحقيقها ، وإذ ذاك لا نستطيع أن نعيش ، ولا أن نكون سعداء ، أنا لا أكرهك ، ولكنك مصدر للشقاء ، فيجب أن تختفى !

كاليجولا : ولماذا تعلن ذلك لى وتخاطر بحياتك ؟

شيريا : لأن هناك آخرين سيأخذون مكانى إذا سقطت ، ولأنى لا أحب أن أكذب !

ويعرض عليه كاليجولا الوثيقة ، فيقول « شيريا » إنه كان عالما بأنها

فى حوزته ، ويقول : « ما إخالك تحتاج إلى براهين لكى تسوق إنسانا إلى الموت ! » .

كاليجولا : هذا حق ، ولكننى أريد — لمرة واحدة — أن أناقض نفسى .. إذ يحسن بالمرء أن يناقض نفسه بين آن وآخر ، ففى هذا راحة من العناء ! .. ها هو ذا البرهان فى يدى ، وأريد أن أعتقد أن ليس بوسعى أن أدفعك إلى الموت بغيره ، ففى هذا راحتى !

ويحرق الوثيقة وهو يقول : « ألا فلتمجد قدرتى .. إن الآلهة أنفسهم يتقبلون التوبة دون عقاب يسبقها ! .. أما إمبراطورك فلم يحتج إلا إلى لهب ليبرئك ، ويشجيك ! .. استمر يا شيريا ، واتبع إلى النهاية منطقك الرائع .. إن إمبراطورك ينتظر راحته ، وهذه طريقته التى يعيش ويسعد بها !

الفصل الرابع

● وترتفع الستار عن « شيريا » و « سكيبيون » . ويقول الأول : « ليس من عادتى أن أطلب العون ، ولكننى فى الواقع محتاج إليك ، إذ لا بد لهذا الاغتيال من شركاء جديرين بالاحترام ، فلا يوجد — بين الزهو الباطل ، والمخاوف الدنيئة — غيرك وغيرى ، من يصدرون عن دوافع غير مشوبة ! .. إننى أعلم أنك لن تخوننا إذا تخليت عنا ، ولكن الذى أتمناه هو أن تظل معنا » .

ويقسم « سكيبيون » أن هذا ليس فى مقدوره .. فيسأله شيريا : « أأنت معه إذن ؟ » .

سكيبيون : كلا ، ولكنى لا أستطيع أن أكون ضده .. إن شيئا فى أعماق يشبهه .. إن لهيبا واحدا يكوى قلبينا .. إننى أكابد عين ما يكابده .. إن شقائى ينبع كله من الفهم !

شيريا : ألا فاعلم أن كراهيتى له تزداد أيضا من جراء ما أصابك من تحول على يديه .. لقد ألقى بك فى هوة اليأس .. وإن يدفع إلى اليأس روحا شابة ، لجريمة تفوق كل ما ارتكب من جرائم حتى الآن !

وينصرف « سكيبيون » ، فيدخل حارسان يقودان الشريف الشيخ ، وشريفا آخر ، وعلى أسارير المقبوض عليهما آيات الارتياع الشديد . ويخرج الحارسان ، فيعرف « شيريا » من الشريفين أن كاليجولا قد اكتشف المؤامرة . ولكنه ينصحهما بأن لا يظهرا الخوف ، لأن كاليجولا يحب الشجاعة .. ويقول : « أتعرفان الكلمة المفضلة لديه .. إنه بعد تنفيذ الإعدام فى أحد يقول فى جد : « إن أكثر ما يعجبنى هو الجمود الحسى ! » .. إن هذا الرجل يتمتع بنفوذ لا يمكن إنكاره .. إنه يقسر الناس جميعا على أن يفكروا .. ولا يدفع إلى إثارة الفكر سوى عدم الأمان ، وهذا هو السبب فى كل الكراهية التى تتعقبه ! » .

ويظهر شبح كاليجولا خلف ستار فى الصدر ، فى ثوب قصير كثياب الراقصات ، وعلى رأسه عقد من الأزهار ، وقد راح يرقص فى حركات مضحكة . ثم تدخل « سيزونيا » لتقول إن كاليجولا دعاهم اليوم

ليشتركوا معه فى مهرجان للفن ، وإن من لا يشترك يقطع رأسه !..
وما أن تنصرف ، حتى يقول شيريا : « يجب أن نبادر إلى العمل . ابقيا هنا .. سيبلغ عددنا الليلة نحو المائتين ! » ..

ويخرج . فلا يلبث أن يفد كثيرون من الأشراف . وتأتى « سيزونيا » لتقول إن كاليجولا يعانى آلاما فى المعدة ، وقد تقيأ دما . ويهتف الشريف « موكيوس » مقسما أنه سيضع فى خزانة الدولة مائتى ألف درهم ، لو أن الآلهة ردت إلى الإمبراطور صحته .. فيهتف الشريف « كاسيوس » بأنه ينذر حياته للآلهة !.. وفى تلك اللحظة يدخل كاليجولا ، فيحتضن « موكيوس » ذاكرا أنه يتقبل ما وعد من مال .. كما يتقبل نذر « كاسيوس » ، فيرسله مع حارس ليقتله !

ويرى « شيريا » مقبلا ، فيصمت الجمع فى وجوم ، بينما تخرج « سيزونيا » لاستقباله متظاهرة بالبكاء ، زاعمة أن كاليجولا قد مات !.. فيجيل شيريا بصره فى القوم ، ثم يقول فى بطء ، وبعد لأى : « هذا خطب جلل ! » .

وهنا يدخل كاليجولا هاتفا : « أجدت تمثيلك يا شيريا .. لم تنجح الخدعة ! » .

وبعد أن ينصرف كاليجولا ، يتساءل الشريف الشيخ : « أهو مريض ؟ » ..

فتجيب « سيزونيا » وهى ترمقه فى حقد : « لا ، ولكنه ينام ساعتين من كل ليلة ، ويقضى بقية وقته متجولا فى أبهاء القصر ، لا يكاد يستريح . إن الذى تجهله ، و لم تحاول معرفته ، هو ما يفكر فيه ذلك الرجل ، طوال

الساعات القاتلة التى تمضى بين منتصف الليل ومطلع الشمس .. إنكم — كجميع البلداء — لا تحتملون أولئك الذين تستعر الحمية فى أفئدتهم .. مزيد من الحمية !.. أهذا ما يؤذى ؟.. أيدعى هذا مرضا ؟ » .

وتعلن إليهم أن كاليجولا كرس ذلك اليوم للفن ، وسيقترح على الشعراء — لا سيما « سكيبيون » و « ميتيللوس » — موضوعا يتبارون فيه ارتجالا .. وتضيف : « وطبعا ، ستكون هناك مكافآت .. كما ستكون ثمة ألوان من العقاب ! » .

* * *

● ويفد كاليجولا ، أشد اكتئابا مما كان فى أى وقت مضى . ويساق الشعراء أمامه ، فيقول : « الموضوع : الموت .. الأجل » ..

فيتساءل الشريف الشيخ : « ومن سيكون الحكم ؟ » ..

فيقول : « أنا .. أليست فى هذا الكفاية ؟ » ..

ويسأله شيريا : « وهل ستشترك فى المباراة ؟ » .

فيجيب : « لقد كتبت منذ زمن فى هذا الموضوع .. إننى الفنان الوحيد الذى عرفته روما .. الوحيد الذى يوفق بين فكره وأعماله ! » .

شيريا : هذه مسألة سلطان فقط !

كاليجولا : حقا .. إن الآخرين يبدعون والسلطان يعوزهم ، أما أنا فلست فى حاجة إلى شىء !

ويعلن المتبارين بأنه سينفخ فى صفارة ، فيبدأ أولهم فى قراءة شعره ، فإذا نفخ فى الصفارة ، فليكف عن القراءة ، ليبدأ الثانى .. والفائز من لا تقطع

الصفارة قصيدته !

ويتوالى الشعراء ، وكاليجولا يطلق صفارته بعد البيت الأول من كل قصيدة ، حتى يحين دور سكيبيون ، فيشرع فى قصيدته قائلا : « الموت اقتناص للسعادة التى تجعل الخلائق أطهارا .. سماء ينسكب عليها من الشمس ضياء .. أعياد فريدة بربرية .. وانفعالى المحموم بلا رجاء ! » .

كاليجولا : (يقاطعه فى لطف) إنك أصغر من أن تعرف دروس الموت الحقيقية !

سكيبيون : (مركزا بصره عليه) لقد كنت أصغر من أن أفقد أبى كذلك !

ويصرف كاليجولا الشعراء على صفير منتظم ، فيمسك « شيريا » بالشريف الأول لدى الباب ، ويقول : « لقد حانت اللحظة ! » ..

وما أن يسمع « سكيبيون » هذا ، حتى يتردد ، ثم يعود إلى كاليجولا ، فيقول له هذا : « ألا تستطيع أن تتركنى فى سلام ، كما يفعل أبوك الآن ؟ »

سكيبيون : هلم يا كايوس ، فلن يجديك كل هذا .. إننى أعلم أنك قد اخترت . لم يعد ثمة من خلاص ، لا لك ، ولا لى .. أنا الذى يشبهك كثيرا !

ويطلب إليه كاليجولا أن يتركه ، فيقول : « سأتركك .. إننى راحل بعيدا .. فوداعا .. لا تنس أننى أحببتك » ..

ويستولى الوجوم على كاليجولا بعد انصرافه ، فتسأله « سيزونيا » ا به ..

كاليجولا: لقد رحل سكيبيون ، وبالتالى ، خلصت من الصداقة .
أما أنت ، فإنى أسائل نفسى : لماذا أراك باقيــة ؟..
لو قتلتك ...

سيزونيا : يكون ذلك حلا لمسألتك .. ولكن ، ألا تستطيع أن تتيح
لنفسك العيش فى حرية ، ولو لدقيقة واحدة ؟

كاليجولا: منذ بضع سنوات وأنا أمارس العيش فى حرية !

وينهض ليهم بقتلها ، ولكنه يبدل من وضع المرآة ، ويدور حول نفسه ، معلقا ذراعيه فى الهواء دون أن يحركهما ، كأنه حيوان . ثم يقول : « إن هذا غريب .. عندما لا أقتل ، أستشعر الوحدة !.. إن الأحياء لا يكفون لتعمير الكون وتبديد الملل . كذلك وجودك أمامى يجعلنى أحس بفراغ غير متناه ، يتوه فيه بصرى . إننى لا أكون بخير إلا بين ضحاياى ! » .

سيزونيا : تعال ، فارقد بجوارى ، وضع رأسك على ركبتى (**يطيعها**)
إنك بخير الآن ، وكل شىء يلفه الصمت ..

كاليجولا: إنك تغالين .. ألا تسمعين وسوسة الخناجر ، ودمدمــة
متزايدة ؟.. (**وتحاول « سيزونيا » أن تقول له إن أحدا لا يجرؤ على قتله**) إن مصرعى لن يكون بأيدى أولئك
الذين قتلت لهم ولدا ، أو والدا ، فهؤلاء قد فهموا .. إنهم
معى ، وفى حلوقهم عين ما فى فمى من مــذاق !..
أما الآخرون .. أولئك الذين سخرت منهم ، وحقرتهم ،

فلا أجد سلاحا أدفع به خيلاءهم !.. إن ما يقوم ضدى ليس هو الغباء فحسب ، ولكن لدى هؤلاء الراغبين فى السعادة ، أمانة وشجاعة .. ولكن ، علام ينبىء هذا الغرام الدافق منك ، دفعة واحدة ؟.. (**يأخذها بين ذراعيه**) إن عمرى تسع وعشرون عاما ، وهو عمر قصير .. ولكنك فى هذه الساعة التى أستعرض فيها حياتى — فأراها ممعنة فى الطول ، مكتظة بالأسلاب ، مكتملة فى آخر الأمر ! — تبقين أنت شاهدا أخيرا !.. ولست أملك أن أدفع عن نفسى نوعا من الحنان المعيب أستشعره نحو العجوز التى تكونينها الآن .. هذا الحنان هو العاطفة النقية الوحيدة التى أتاحتها لى حياتى حتى الآن .. ألا يحسن أن يخنق هذا الشاهد الأخير ؟

سيزونيا : لا يهم ، فأنا سعيدة بما قلت .. ولكن ، لم لا تقتسم معى هذه السعادة ؟

كاليجولا: السعادة نوعان ، وقد اخترت أنا سعادة السفاحين !.. لقد اعتقدت يوما أننى بلغت أقصى حدود الألم ، وليس هذا حقا . إن الضحك ليأخذنى عندما أفكر فى امتناع روما بأسرها — أعواما طويلة — عن النطق باسم « دروسيلا » .. فلقد انخدعت روما طيلة هذه الأعوام !.. إن الحب لا يكفينى ، وهذا ما شعرت به إذ ذاك ، وما أدركه الآن وأنا أنظر إليك : أننا عندما نحب إنسانا ، نرتضى أن نكتهل معه ،

ولست بقادر على هذا الحب .. فلئن تهرم « دروسيلا » لشر يفوق موتها . على أن هناك من يعتقدون أن الإنسان يأ لم ويشقى لموت من يحبه ، ولكن الشقاء الحقيقى إنما يصدر عن علة أقل تفاهة ، لأن الحزن ليس بأكثر دواما من سواه !.. وهكذا ترين أنه لم يكن عندى مجرد طائف من حب ، ولا مرارة من أسى . ولكننى اليوم أكثر حرية مما كنت قبل أعوام .. متحرر أنا من الذكريات والأوهام (**يضحك فى أسى**) .. إننى أعلم أن لادوام لشىء !.. أى سيزونيا .. لقد تتبعت مأساة شديدة الغرابة ، حتى فصلها الأخير ، وقد حان الوقت لكى تهبط الستار بالنسبة إليك (**ويأخذ فى خنقها وهى مذعورة ، مستسلمة**) .

.. إننى أحيا .. إننى أقتل .. إننى أمارس قدرة المدمر .. قدرة محمومة تبدو مقدرة الخالق إزاءها تقليدا مضحكا !.. هكذا يكون المرء سعيدا ، فالسعادة هى هذا الخلاص المرهق ، وهذا الاحتقار الشامل ، والدم ، والكراهية المحدقة بى ، والعزلة الفريدة للرجل الذى لا يغفل عن حياته كلها طرفة عين ، والغبطة الفائقة عند السفاح الذى لا يناله العقاب !

* * *

● وتموت ، فيدور حول نفسه فى ثورة وحشية ، ويتأمل صورته فى المرآة ، قائلا : « وأنت أيضا يا كاليجولا .. أنت أيضا مذنب ، ولكن ، من ذا الذى يجرؤ على إدانتى فى هذا العالم الذى لا قاضى فيه ، ولا إنسانا بريئا !..

يا لقسوة أن يكون للمرء حوافز تلزمه بالمضى إلى النهاية ، فإنى أخشى هذه النهاية !.. قعقعة سلاح ؟! إنها البراءة تعد العدة لانتصارها . إننى خائف !.. ياله من شيء مستهجن ، أن أشعر — بعد ازدرائى للآخرين — بجبنهم يدب فى أوصالى . ولكن الخوف لا يدوم هو الآخر ، وإنى لعائد إلى ذلك الفراغ الكبير الذى يهدأ فيه القلب ! » .

ويخر على ركبتيه باكيا ، وهو يقول : « لو أننى حصلت على القمر !.. لو أن الحب كان كافيا ، لتبدل كل شيء . ولكن . من أين أروى هذا الظمأ ؟.. كان يكفى أن يتحقق المستحيل . لقد فتشت عنه فى أطراف العالم ، وعند حدود نفسى (يمد يديه نحو خياله فى المرآة وهو يبكى) لقد مددت يدى .. إننى أمدها فلا ألقى سواك .. أنت دائما فى وجهى ، فكم أبغضك ! .. إننى لم أسلك الطريق الصحيحة ، وها أنا ذا لا أنتهى إلى شيء .. وليست حريتى هى الحرية الصحيحة .. أواه !.. إن هذا الليل ثقيل .. ثقيل كآلام البشر ! » .

تسمع قعقعة سلاح ، وهمسات ، فيتطلع إلى صورته ، ثم ينهض فيقذف المرآة بمقعد وهو يصرخ : « إلى التاريخ يا كاليجولا .. إلى التاريخ ! » ..

وتتحطم المرآة ، بينما يدخل المتآمرون ، فيضحك فى خبل وهم يطعنونه .. وتتحول الضحكات إلى شهقات .. ثم يصرخ .. صرخة تجمع بين الضحك والغطيط : « إننى حى ، لا أزال ! » ..

ويلفظ مع الكلمات آخر أنفاسه !

JUDITH
PAR
JEAN
GIRAUDOUX
جوديث
المسرحية العالمية التى تكشف عن حقيقة شعب إسرائيل!
للكاتب المسرحى الكبير "جان جيرودو"

إسرائيل الأمس .. هى إسرائيل اليوم !

لم يلعن قوم فى الكتب المقدسة قدر ما لعن بنو إسرائيل ، فقد كانوا دائما يتنكرون لرسلهم ، ويبيعون دينهم ومبادئهم بعرض الحياة الدنيا .. وفى هذه المسرحية الرائعة يقدم لك الكاتب المسرحى « جان جيرودو » صورة رائعة لبنى إسرائيل وكيف يستبيحون كل شىء فى سبيل مطامعهم .. حتى الشرف !.. فلقد هزموا وأوشك العدو أن يفنيهم ، فلم يجدوا منفذا للخلاص — فى ظنهم — إلا بأن يقدموا للملك العدو عِرض أجمل عذراء فى « إسرائيل » هبة سائغة !.. ولم يكتفوا بهذا ، بل شاءوا أن يخلعوا على الخسة قداسة ، فزعموا أن الله هو الذى أوحى بذلك ، وجعلوا من الفسق معجزة .. وعندما وجدت العذراء فى العدو الذى أرسلوها إليه رجلا أحبته ، أبوا إلا أن يمضوا فى إيهام الناس بالمعجزة المزعومة ، وساوموا الفتاة على كتمان الحقيقة !

وهكذا إسرائيل .. فى كل العصور ، منذ القدم .. تتخذ من الدين ستارا لأغراضها الدنيوية ، وتريق العِرض والكرامة فى سبيل المطامع !

ومما يجدر ذكره أن مؤلف هذه المسرحية قد استوحى فكرتها من قصة وردت فى أحد الفصول المحذوفة من التوراة ، وعنوانه « يهوديت » — المحرفة عن « جوديت » — وهى تروى السند التاريخى لها ، ويتلخص فى أنه فى القرن الرابع قبل الميلاد أرسل « نبوخذنصر » — ملك أشور — جيشا بقيادة « هولوفيرن » ليحاصر (بتوليا) معقل الإسرائيليين ،

حتى يضطرهم إلى التسليم . وقد دام الحصار أربعين يوما ، عانى خلالها أهل المدينة من وطأة الظمأ والمجاعة ، ما جعلهم يستصرخون قوادهم كي يسلموا بالهزيمة . وإذ أوشك القواد أن يفعلوا ، تطوعت حسناء تدعى « جوديث » لإنقاذ الموقف ، فاتخذت أبهى زينتها ، وتسللت إلى خيمة « هولوفيرن » حيث فتنته ، حتى إذا أمن جانبها ، أسكرته ثم هوت بسيفها على رقبته !

الفصل الأول

صيحة تنبعث فى عويل منغوم ، من أصوات عديدة : « جوديث ! جوديث ! » .. وبينما ترفع الستار ، يسمع صوت فرد يردد الصياح المعول ، ثم يظهر المسرح ، والعم يوسف وعدد من الخدم يجرون فى جنبات غرفة ، وقد شهروا سيوفا وهراوات ، وراحوا يبحثون فى كل مكان عن مصدر ذلك الصوت المفرد .. ويقول يوسف :

يوسف : إنه فى مكان ما من البيت .

خادم : لا يا سيدى ، إنه موجود .. أعنى أنه غير موجود ! لا أحد ينكر أن صوته هنا ، ولكن الصوت يا سيدى بلا جسد !.. إنه شبح .. إنه صوت من الأموات يناشد ابنة أخيك ، لأنها الوحيدة التى تملك أن تنقذنا .. جوديث ! جوديث !

وينطلق النداء فى نفس النغم المعول السابق ، فيتملك الهلع الخدم ، لا سيما حين تنبعث أصوات من الخارج تردد الاسم فى عويل . فيطرد يوسف الخدم ، ويروح يتلفت حوله فى توجس ، فإذا بوجه يبدو فى النافذة ، ويوقع صاحبه النغم على الزجاج وهو يردد بنفس الصوت الحزين المتهالك : « جوديث ! جوديث ! انقذينا ! » .. ويختفى الصوت ، فيعود الخدم إلى البحث ، حتى إذا عجزوا عن أن يجدوا شيئا ، وقفوا جامدين حائرين . ولا يلبث أن يدخل « يوحنا » ـــ وهو

ضابط شاب — يجر الرجل الذى بدا وجهه خلال النافذة من قبل فيلقى به عند قدمى يوسف قائلا : « لقد فاجأته وهو يفر .. سنعلم هذه الأفواه النجسة أن ثمة أسماء يجب أن لا تمس ! » . ويسأل الرجل عمن يكون ، فيقول يوسف :

يوسف : إن رائحته تنم عن أنه بحاجة إلى حمام .. لا بد أنه واحد من الأنبياء !.

(وقد كان اليهود فى الماضى يطلقون على الأتقياء المتفرغين للعبادة « أنبياء ») .

خادم : إن المدينة مليئة بهم .. إن الكلاب المحتضرة تتصيد الذباب . ولكن .. إذا كانت المدينة هى التى تحتضر ، فإن الكناسين يلقبون بالأنبياء ، والطنين يسمى « نبوءة » !

ويعود « يوحنا » إلى سؤال الرجل عن اسمه ، فيرفع هذا يده ويهتف : « جوديث ! جوديث !.. يا أجمل الطاهرات ، ويا أطهر الجميلات ! » .

يوسف : إننا نعرف هذا . إنها النبوءة !.. أجمل بناتنا ، وأطهر زهرات إسرائيل .. يجب أن تسلم نفسها لهولوفيرن !

النبى : جوديث ! أنقذينا !

ويجره المتقدم إلى الخارج وهو يردد نداءه المعول ، بينما يتلكأ أحدهم ، ثم يلتفت إلى سيد الدار قائلا : « أيها السيد الرحيم .. دع جوديث تنقذنا ! » ، ويهرب قبل أن ينزل به « يوسف » نقمته . وإذ ذاك يخلو الجو ليوسف — عم جوديث — ويوحنا ، خطيبها ، فنفهم من حديثهما

أن الفتاة فى المستشفى تعنى بالجرحى ، وأن إسرائيل تحتضر ، والعدو جاثم خارج أسوار المدينة يخنقها بحصاره ..

يوحنا : هل تراها تعلم أنهم قرروا أن يرسلوها قربانا إلى هولوفيرن ؟ لقد اجتمع الكهنة ، ولن يلبث كبيرهم أن يفد ، لإغراء جوديث .. والمدينة كلها من ورائه !.. إن النداء مكتوب بالطباشير على جدران المدينة كلها .. ومحفور بالماس على زجاج النوافذ .. ومرسوم بالفحم على الأسوار الخلفية .. نفس الكلمات السخيفة : « جوديث الجميلة ، أطهر الطاهرات ، ستضاجع هولوفيرن » !.. وأولئك الحمقى يتجمعون عند نواصى الطرق .. نفس الشيوخ المخرفين ، الذين يتجمعون فى ارتقاب ، كلما اشتم الناس رائحة معجزة توشك أن تقع !

وتتعالى الأصوات من الخارج معولة : « جوديث .. أنقذينا ! » .

يوسف : إذا كان قومنا أتقياء يا يوحنا ، فما ذلك إلا لأن التظاهر بالتقوى يتيح لهم حجة إرشاد الله إلى إدارة ملكه فى الأرض !

(فقد كان أتقياء إسرائيل يملون على الناس آراءهم ، زاعمين أن الله أوحى بها إليهم .. حتى الفسق ، الممثل فى دفع عذراء طاهرة إلى فراش ملك الأعداء كى يأمر بفك الحصار عن إسرائيل .. حتى هذا الفسق زعموا أنه رغبة الله ، وأنه « معجزة » !)

ويستشيط « يوسف » غضبا وهو يسمع الأصوات تتعالى — متضرعة — باسم ابنة أخيه ، ويختنق « يوحنا » هو الآخر ، ولكنه

لا يرى حيلة إزاء الشعب ، لا سيما وأن « الحاخام الأكبر » فى طليعته .

يوسف : إذا شاءت جوديث ، فإن فى وسعها أن ترد للحاخام الأكبر عقله !

يوحنا : إن العقل فى صف الكهنة فى أوقات الموت والمجاعة ، إذ أن لديهم المنطق الذى يطالب بالمعجزات ، بل ويبتكرها إذا استدعت الحال !.. على أننى جئت لأنبئك بأن فى وسعى أن أنقذ ابنة أخيك من أن ترمى إلى البرابرة .

يوسف : تنقذ جوديث ؟.. ظننت أن جوديث هى التى ستنقذ المدينة !

* * *

ويخرج يوحنا ، بينما تنبعث الأصوات تردد اسم جوديث مترنمة ، لا معولة ، فى هذه المرة . ويسمع صوت يوحنا فى الخارج وهو يصرخ مطالبا إياهم بالصمت . ثم يقول :

يوحنا : لقد أحالوا اسمها إلى ترنيمة .. ترنموا أيها الأنجاس ، ترنموا ، فهناك أوقات تكون فيها الصلاة أكثر مجافاة للإنسانية من صيحات الدم !.

ويقبل الحاخام الأكبر « يواقيم » ، فيسأل عن « جوديث » ، وإذ يسأله يوسف عن بغيته منها ، يقول :

يواقيم : إننى — بوصفى الكاهن الأعلى ، والحاخام الأكبر لإسرائيل — لا أملك أن أعلن بغيتى إلا لابنة أخيك .

يوسف : إنما جئت لتحول فتاة ساذجة إلى قديسة قومية يندبها الناس

ويبكونها !

يواقيم : إن هذا من شأن إسرائيل ذاته ، وإسرائيل اليوم يتكلم بصوت أنبيائه !.. والحق أنه لم يعد لقومنا ما يعيشون عليه — وهم يفتقدون الخبز — سوى النبوءة !

يوسف : إنك كاهن ، وأنا مصرف ، فلا تحدثنى عن النبوءة ، بل سمها باسمها الحقيقى : « هوس عام » .

يواقيم : كأنى بالرأس الوحيد الصافى التفكير هو رأسك .. وكأنى بك ترى ببصيرتك المجلوة نهاية هذا الحصار الذى أمات قومنا جوعا ، وقضى على تجارتهم .. كأنى بك ترى أبناء إسرائيل لا يزالون ممتلئين سمنة وهم يقتاتون من خيرات الله ؟!.. لعلك — وأنت العاقل الوحيد فى المدينة — تشم عبير الربيع ؟!

يوسف : بل أشم الموت والوباء !.. إن بيننا وبين جيش هولوفيرن نطاقا من جثث اليهود المتعفنة ، ومع ذلك فلست أقر قومنا على لهفتهم لإنقاذ جلودهم بأى ثمن ، وعلى تصرفهم كبرابرة جهلة !

يواقيم : وما الذى تراه بين أسرتك وبين المذبحة الأكيدة التى ستحيق بنا فى صباح غد ؟.. لسوف تكون ابنة أخيك من الضحايا كغيرها !.. لعلك تدرك أن العامة يتطلعون إذا أعوزتهم الجرأة وهددتهم الكارثة .. يتطلعون إلى .. معجزة ! والمعجزة الآن فى متناول أيدينا ، فإن المدينة — بعد شهرين

من الجهاد الأعمى — تسمع اسم ابنة أخيك يتردد .. لقد اختارها القوم لتكون معجزتهم ، وإننى لأعرفها منذ حداثتها .. إنها جميلة ، معتدة بجمالها .. وإنها لغنية ، تعرف كيف تستمتع بثمار حظها وثروتها .. كل شباب البلد يتقربون إليها ، وإنها لتتصدر مجالس الكتاب والأطباء والتجار وطلاب اللهو .. وإن شعورها بجمالها هو الذى سيجعلها توافق على أن تهب نفسها لله !.. لقد سمعت بأن الله اختارها ، فهل تراها أبدلت شيئا من أسلوب حياتها ؟

وتصل « جوديث » فى تلك اللحظة ، مصطحبة غلاما ، فتقول :

جوديث : تحياتى إلى يواقيم .. عم مساء يا عماه . هل من لقمة فى البيت ليعقوب الصغير ؟.. إنه يموت جوعا !.

يعقوب : لست أريد خبزا .. إنما أريد أن تذهب جوديث إلى عدونا هولوفيرن .

جوديث : عجبا ، لقد وعيت درسك جيدا !.. وماذا تفعل جوديث إذا أسلمت نفسها لهولوفيرن ؟

يعقوب : « لست أدرى » ..

وتغريه على أن يتناول قطعة من اللحم ، فينصاع للإغراء ، ويسعى إلى المطبخ . وإذ ذاك تسأل الفتاة عمها أن يخلى لها الجو مع الحاخام الأكبر قائلة :

جوديث : لا تخش شيئا .. لا وجود الليلة ليواقيم .. إن الأمر الليلة بين جوديث وبين الله .. فقط !

يواقيم : (بعد خروج يوسف) إن الله موجود الليلة فى هذه الحجرة فعلا .

جوديث : يخيل إلىّ أنه أخطأ العنوان ، فليست هذه بالدار التى يقصدها !

يواقيم : إن النبوءة تقول إن المنقذة هى أجمل الجميلات ، وأطهر الطاهرات !

جوديث : وهل قالت إنها أيضا أكثر فتيات المدينة حبا للهو والبذخ ؟.. إذا كان القوم يروننى جميلة ، فما ذلك إلا لأننى أرتدى ثيابا غالية ، وأجيد انتقاء ما يلائمنى منها !.. إن أية امرأة أوتيت شجاعة على القيام بما تقترحون ، لا بد أن تبدو طاهرة وجميلة .. وهذا ما تعنيه النبوءة فى الواقع !

يواقيم : إن إلٰهنا لا يتكلم بالتورية والمجاز ! وإذا كنا نتمسك بحرفية الشرع ، فما ذلك إلا لأن إلٰه اليهود يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية !

جوديث : عجبا . ولكننى إلى الآن لم أسمعه يلفظ باسمى !.. ألا تستطيع أن تنسى الثراء والجاه مرة ؟.. لا تزال فى الطبقة الوسطى عذارى كثيرات .. وما رأيك فى العاملات ؟.. خليق بالدين أن يكون أكثر ديمقراطية مما هو الآن ، وأن يتيح فرصة المجد للمغمورات !!

يواقيم : ولكن المغمورات وأهلهن هم الذين اختاروك !

جوديث : لست أحفل باختيار أجمع عليه من لم يخترهم الله .. إن الذى

أسمعه هو صوتهم وليس صوت « جيهوفا » — أو « يهوا » ، وهو من أسماء الله عند اليهود — فليست هناك أدنى دلالة تنم عن رغبة الله .. مجرد لمحة من دفء ، أو مجرد كلمة تكفى ..

* * *

ويقبل إذ ذاك الصبى « يعقوب » ، فيلقى بقطعة اللحم على المنضدة . وتعرض عليه جوديث ألوانا أخرى من الطعام ، فيرفض ، ثم تمنيه بتفاحة ، فيقول « يواقيم » :

يواقيم : لسوف يجبرونه على أن يردها إليك ! ..

ولكنها تعطى الصبى تفاحة ، فيخرج بها مسرعا . وتلتفت جوديث إلى الكاهن قائلة :

جوديث : ليست لدى الأطفال فكرة عما يجرى بين شابة وعملاق فى غرفة مغلقة . فيسألها يواقيم :

يواقيم : وهل لديك أنت فكرة ؟

جوديث : إنها فكرة غامضة .. فقد كافحت الطاغية ذات ليلة فى الظلام !

يواقيم : ومن الذى فاز ؟

جوديث : هو .. فى الحلم طبعا !

وتندفع التفاحة فى تلك اللحظة من النافذة إلى الحجرة ، إذ أغرى القوم الصبى على رفضها ما دامت جوديث لم تتطوع بعد لإنقاذهم .

جوديث : ألا ابحث عن سواى يا يواقيم .. لقد قابلت فى ساحة الدار فتاة من العرافات المباركات ، وهى تحمل خاتم البركة على ثدييها ولسانها ، كما أن لها نفس اسمى ..

يواقيم : ولكن إحدى عينيها عمياء ، كما أن بوجهها بثورا .

جوديث : إذن فعالجها ، ولن تلبث أن تحيل قبحها إلى جمال ..

يواقيم : وكم من الوقت تظنين لدينا ؟

جوديث : سمعت أن إمدادات هولوفيرن أوشكت على النفاد .

يواقيم : أنا الذى أطلق هذا النبأ ! والحقيقة أننا نحن الذين نضبت موارد أسلحتهم .. لم يعد لجيشنا وجود يا جوديث !

وتبدى جوديث ترددا فى أن تصدق ذلك ، ولكن يواقيم يلمح « يوحنا » خلال النافذة ، فيناديه ، ثم يقول لجوديث :

يواقيم : أتحبين أن تسمعى هذا من جندى ؟.. من يوحنا مثلا ؟

جوديث : ولماذا يوحنا ؟.. لا ، لا جدوى . لن أصدق !

يواقيم : إنك إنما تترددين من أجل يوحنا ، ولكننى أعرف كيف أقنعك .

جوديث : تقنعنى ؟.. بماذا ؟

يواقيم : بواجبك فى أن تصبحى قديسة !

جوديث : قديسة لا تخلو من شوائب !.. سل يوحنا ، وإن كان من الطبيعى أنه لن يخبرك عنى بشىء تسمع مثله من بولس أو بطرس أو أى ضابط يتقن الرقص والتقبيل . لسوف تعلم من هذا أننى لست جوديث التى أشارت إليها النبوءة !

ويقبل يوحنا ، فيسأله يواقيم أن يجيب عن أسئلته بصدق تام ، مهما تكن عواقب هذا الصدق . ثم يقول :

يواقيم : أليس من الحقيقى أن فلول حرس المدينة تمردوا فى هذا

الصباح على ضباطهم واستسلموا للعدو ؟..

جوديث : (تصيح) هذه فرية ..

ولكن يواقيم يمضى فى حديثه :

يواقيم : وهل من الافتراء أن كتيبتنا المقدسة ــ المؤلفة من رجال الدين ــ قد ولت أمام العدو فى ذعر وتركت علمها على الأرض ؟.. وهل من الكذب أنه لم يبق للدفاع عن المدينة سوى فصيلتين من الكهول الذين اضطروا إلى حمل السلاح أخيرا ؟.

جوديث : أجب يا يوحنا .. تكفينى كلمة واحدة .

يوحنا : لا تكونى قاسية .

جوديث : قاسية ! وأين ذهبت عيناى ؟.. لست بحاجة إلى جواب ، فإنى أقرأه مسطورا على وجهك .. إذن ، فقد حاقت بنا الهزيمة !.. انكسر جيشنا المجيد !.. انهزم قادتنا فى ثيابهم الأنيقة ، وضباطنا فى ملابسهم الموشاة بالأشرطة !

يوحنا : ومع ذلك فما زلت أجسر على أن أتطلع إلى وجهك .

جوديث : ولكنها ليست جوديث التى تراها ، فلو أنك كنت ترانى حقا لغضضت بصرك !.. لو استطعت أن ترانى الآن وقد هزمت بلادنا وديست تحت الأقدام ، لما استطعت أن تحتمل مرآى ولفررت منى بأسرع مما فررت من العدو .. لقد لمحتك منذ لحظات تقبل طفلا فى الشارع ، فكانت هذه أبشع أكذوبة ، لأنك كنت تعلم فى قرارة قلبك أننا هزمنا .. إن الهزيمة بالنسبة للعسكرى قضاء لا يبيح له أى شىء !

يوحنا : إنك صغيرة يا جوديث .. أصغر من أن تتكلمى هكذا !

يواقيم : كفى يا بنى ، فإن جوديث الليلة هى الجندى الأول فى المدينة ، وفى خطوط دفاعنا !.. ثم إننا مسئولون عن أعمالنا أمام الله !

يوحنا : ولكن الله لم يكن يوما مشغوفا بالقضايا الخاسرة . وما أحسبه إلا متقبلا تجديفنا فى ساعة الخسارة ، فإن سبابنا له يجنبه أن يشغل باله بنكبتنا ! ثم إنه لا يزال يجد « جوديث » ليعتمد عليها .. لتلتقط له الكستناء من النار !

جوديث : أجل .. لا تزال « جوديث » فى جعبة الله !.. هل كان ذنبى أنكم معشر الأبطال كنتم أعجز من أن تذودوا عن شرفنا ، فأسلمتم السيف لامرأة ؟

يوحنا : إننا لم نسلمك أنت بالذات — على الأقل — أى شىء . أفحقا أنت أجمل بنات إسرائيل ؟.. إن معظم جمالك منعكس عن بريق الذهب والترف !.. انظر إليها يا يواقيم .. تأملها جيدا .. إن الفتاة على عتبات كل شهوة بشرية وكل نزوة متقلبة !..إنها جميلة ، ولكنه جمال آدمى .. جمال زائل .. جمال اللحظة !

جوديث : وهذه هى اللحظة التى خلقت لها .. أقسم أن أكون الليلة أجمل النساء !

يوحنا : جوديث ! إنك لست العذراء التى ذكرت فى الكتاب المقدس .. سلها يا يواقيم أين كانت فى مثل هذا الوقت منذ

أسبوعين .. كانت فى أحضانى .

جوديث : فى أحضان جندى هزمه العدو !

يوحنا : بل فى أحضان رجل غطى جسمك بجسمه ، وألصق شفتيه بشفتيك !.. ولست أزعم أنك أسلمتنى نفسك ، فأنت لست من السذاجة بهذه الدرجة ..

جوديث : إنما أنت الساذج يا صديقى .. بل ومغرور . ألا أنصت إليه يا يواقيم !.. قبلة واحدة تكفى لأن تجعله يظن أننى له !

يوحنا : لا تقلقى ، فلن تسمعى احتجاجات من شفتىّ إذا ما تزوجت من هولوفيرن .

جوديث : (وكأنها تذكرت) ليس لهولوفيرن وجود .. ليس هولوفيرن سوى اسم لنوع من العذاب فى سبيل التكفير ! وإذا غادرت هذه الديار الليلة إليه ، فلن أكون الفتاة الوحيدة فى الدنيا التى استخدمت جمالها وطهرها وكأنهما لم يكتبا لرجل ، وإنما للحظة جليلة فى التاريخ !

ويحاول يوحنا أن يؤكد لها — رغم اعتراض الحاخام الأكبر — أن هولوفيرن بشر .. رجل ، ورجل عملاق ، ضخم . فتقول له :

جوديث : أليس فى نفسك الصغيرة شىء من الرحمة ؟.. ألا ترى أن شجاعتى لن تصمد إلا بقدر ما أستطيع أن أتحكم فى خيالى ؟.. قل لى ، هل فقدنا كل شىء ؟.. أما من سبيل إلى نجاتنا ؟

يوحنا : لا ، فسوف يشن هولوفيرن هجومه عند الفجر ، ولن يجد

أمامه ما يوقفه .

يواقيم : وها قد جنحت الشمس للمغيب .

جوديث : أشكرك يا يوحنا ، فقد حسمت لى الأمر . سأذهب الليلة .. هذا إذا رضى بى هولوفيرن ! إن أحدا لم يرنى بغير ثيابى ، ولكنى أشهد الله وأؤكد لك وللناس ، أن ساقى ناعمتان ، وقدمي لا تشوبهما خدوش !.. ما أحببت أحدا من أولئك الرجال حبا حقيقيا قط .. لم يمسسنى أحد منهم قط .. أفهل يكفى هذا لإثبات عفتى ، ولأن يكون الله قد اختارنى لتحقيق النبوءة ؟

يواقيم : إنك لطاهرة ، وقد اختارك الله . أفمتأهبة أنت للرحيل ؟.. أفتعلمين ماذا يرتقب منك ؟

جوديث : وفر عليك النصح .. إننى أرى بجلاء ماذا ينبغى أن أفعل .. لقد بدأت أرى ما هي عليه هذه « الجوديث » التى تتطلعون إليها . ولكن .. كيف لى أن أعرف حقيقة الأفكار التى تدور خلف هذا القناع من اللحم .. خلف جسدها !

يواقيم : وهل ترين هولوفيرن ؟.. إنه وحش ، سكير ، يكيل السباب لليهود وربهم !.. وهل ترين نساءه وهن يتكأكأن حولك ، ويلوثن ثيابك ، ويمزقن شعرك ، ويسخرن من جسدك ؟.. هل ترين ببصيرتك ذلك الجبار وهو مضطجع على سريره ، يمد يده ليمسك بك ويجذبك إليه ؟!

جوديث : بل إننى أكاد أمسه .. إننى أرى نبض شريان أزرق فى

عنقه .. وإن وجهه ليزداد امتقاعا .. يا للسموات ، أين أنا ؟

يواقيم : فى الماضى يا جوديث ، وقد حان الوقت لتنتقلى إلى المستقبل .. انتظرى حتى يبزغ القمر ، ثم انطلقى .

* * *

وينصرف يواقيم ، فيحاول يوحنا أن يفت فى عزيمة جوديث ، حتى إذا أخفق سألها :

يوحنا : ترى ما الذى أملك أن أقوله لك ؟

جوديث : كلمة السر التى أمر بها إلى خارج الأسوار !

يوحنا : ألا تستطيعين أن تحدسيها ؟ إنه اسمك .. إن « جيهوفا » نفسه يزهو الليلة يا جوديث لأن اسمه يبدأ بالحرف الذى يبدأ به اسمك !.. وإن الحراس ليرتقبونك عند البوابة المواجهة لدارك .

جوديث : وأين سرادق هولوفيرن ؟

يوحنا : شمالى البوابة .. اتبعى الجدول الذى يقطع الطريق ، ولكن لا تشربى منه ، لأن الماء قد سمم .. ولا تمنى نفسك بوحدة أو سكينة فلسوف تتعثرين كل عشر خطوات فى « كيس » من اللحم والعظام .. وستكون الكلاب فى كل مكان .. وسيبدو كأن ساحة القتال كلها تعول وتنتحب فى رقادها .. أفتريدين أن أنبئك كيف تستطيع فتاة أن تتطلع إلى وجه عملاق ؟.. كيف تستطيع عذراء أن تحتفظ بغشاء البكارة فى الوقت الذى يعتدى فيه على عرضها ؟.. لقد

فاتت الفرصة التى أعلمك فيها كيف تمارس الفتاة الحب .
على أن فى الخارج شخصا هو الذى يستطيع أن يعلمك ..
تعالى يا سوسانا !

ويخرج يوحنا لتدخل سوسانا .. مومس من عاهرات المدينة ، لها وجه جوديث وقوامها وصوتها ، حتى إن عشاق جوديث يلجأون إليها لكى ينفسوا لديها عن الشهوات التى كانت جوديث تثيرها فيهم !

سوسانا : ولكننى لم أسرق شيئا من تعاليك أو كبريائك .. لقد سعدت يا جوديث لأننى جعلت نفسى تبدو مثلك .. أو هكذا أجعل الناس يعتقدون

جوديث : ليس فى وسع امرأة صيغت فى كيان ادمى ، أن تتشبه بى .. ولا سيما الليلة !

سوسانا : ولكنك لم تكونى إنسانة قط .. قبل الليلة !

وتسألها جوديث عما جاءت تبغى ، فتقول سوسانا :

سوسانا : إننى لا أؤمن بالأنبياء ، فإن معظمهم جواسيس يعملون من أجل العدو .. وبعض الناس يظنون أن هولوفيرن سمع كثيرين من الرجال يفخرون بجوديث ، حتى إنه وضع خطته للإيقاع بها لنفسه !

جوديث : وماذا لو فعل ؟ أليس من الممكن أن يكون الله قد بث فى ذهنه هذه الفكرة لكى يقضى عليه ؟

وتروح سوسانا تجادل الفتاة وتضرع إليها أن تحتفظ ببكارتها

وبطهرها ، وأن تدعها تحل محلها فى المهمة التى اختيرت لها ، فتقول جوديث :

جوديث : وما رأيك فى الله ؟ ألن يرى فارقا بيننا ؟.. لماذا تريدينني على أن أحتفظ ببكارتى ؟.. ألأن بكارتى ترسل كثيرا من العملاء إلى بابك ؟

سوسانا : يجب أن تنقذى نفسك يا جوديث ؟

جوديث : ومن قال إننى لن أنقذها ؟

سوسانا : ولكنك فتاة .. فليس لك سلاح ولا حول !

جوديث : إن لدى أخطر الأسلحة طرا .. لدى موهبة الكلام ! إن جوفى ليغلى بكلمات تريد الانطلاق .. تريد الإجابة عن مجموعات من الأسئلة التى لم يوجهها أحد لى .. إنك تبكين يا سوسانا .. لماذا ؟.. إنك لا تفهميننى أكثر مما يفهمنى يوحنا والحاخام .. إذا كنت أعارض فى الطريقة التى يدفعوننى بها ، فما ذلك إلا لأننى كنت أحلم فى ليلى بشىء كهذا أفعله من تلقاء نفسى .. كنت أحلم برجل عملاق يعتدى علىّ ! ولقد انتظرت طويلا .. وها هو ذا الله يوشك أن يفوز دونى بالفضل . ولعلنى كنت أعرف منذ البداية أن الفكرة إنما كانت فكرته هو .. وربما كان الله يرى أننى فكرت فيها من تلقاء نفسى، ولعله يغار منى لأننى فكرت فيها دونه .. وقد يكون هذا انتقامه منى !.. ألا انظرى إلىّ .. أفأنا تلك الفتاة التى كنت تمثلينها للشبان المساكين الذين

كنت أدفعهم إلى أحضانك ؟.. أفهذا هو الأسلوب الذى كنت تحدثينهم به ؟.. ألا وداعا يا بشرتى الناعمة .. وداعا يا شفتى !.. ما أسهل أن يودع المرء أختا من أن يودع صورته !

وتنطلق « جوديث » ، والمدينة كلها ساهرة .. وأبناء إسرائيل جاثمون فى دورهم ، خلف النوافذ ، يترقبون رحيلها ..

ويدخل يوحنا على سوسانا الحائرة ، فما أن يعلم أن جوديث قد رحلت حتى يقول لها :

يوحنا : هل تذكرين الطريق القصير ؟ إذن فاسلكيه لتسبقى جوديث !.. ويلوح وجه النبى فى النافذة يدعو جوديث إلى النجدة ، فيسرع يوحنا إليه ويجره إلى الحجرة ويقتله ، ثم يقول :

يوحنا : ها هو ذا الإنقاذ قد واتاك !

الفصـل الثانى

وترفع ستار الفصل الثانى عن اثنين من « ياوران » هولوفيرن ـــ هما « أورى » و« أوتا » ـــ فى حجرة داخل سرادق الملك ، وهما يعابثان امرأة قوادة تدعى « سارة » ، اعتادت أن تستجلب إلى المعسكر بعض بنات إسرائيل . ويفد ضابط مفرط فى التزين والتنعم ـــ كالإناث ـــ يدعى « إيجون » ، فيسأل « سارة » عما أعدت لهم الليلة من لهو ، فتقول :

سارة : « أعددت مهزلة .. أبدع دور مضحك لعبته يهودية ـــ أو ستلعبه ـــ على مسرح .

إيجون : ومن تكون تلك اليهودية ؟

سارة : إنها فى الطريق إلى هنا .. فتاة فى العشرين من عمرها .

إيجون : لعلها متسولة أخرى ؟

سارة : بل إن أباها مليونير ، وقد ظل أجدادها خلال القرون الثلاثة الأخيرة يقرضون الناس أموالهم ، ويسرقونهم ، ليقيموا قاعدة من ذهب تقف عليها هذه « التحفة » العجيبة !.. إنها آتية لكى تقابل هولوفيرن .

إيجون : إذا كنت وتلك اليهودية تعتزمان شرا ..

سارة : ولكننى لم أدبر زيارتها ، وإنما أوفدها شعب إسرائيل ، فإن

أنبياءهم يقولون أن لا سبيل لنجاتهم إلا إذا جاءت أجمل فتيات المدينة وأطهرهن إلى هولوفيرن ساعية ، دون ما حراسة .. ويعتقد الكثيرون أن جوديث هذه هى الفتاة التى يتحدث عنها الأنبياء .

إيجون : جوديث ؟.. أتقولين إن اسمها جوديث ؟.. ماذا كان اسم تلك الفتاة التى دبرت مقتل ضابط الحرس فى الأسبوع الماضى ؟

سارة : إنها نفس الفتاة .

ويرى « إيجون » أن ينتقم من الفتاة لما أصاب زملاءه ، فيعتزم أن يتظاهر لدى وصولها بأنه الملك « هولوفيرن » .. ويمضى فى التدبير مع سارة وأورتا وأورى .. ولا تلبث « سارة » أن تقول :

سارة : إنها وشيكة الوصول الآن ، فقد رصدنا الجواسيس فى طريقها منذ بارحت المدينة .. وقد دخلت المعسكر من ناحية الجدول الذى هاجمكم منه أعداؤكم فى المرة السالفة ، وقد امتزج ماؤه بالدم .. ومع ذلك فإن الفتاة انحنت فشربت وأطفأت عطشها !

وتلج « جوديث » ، فيتجاهلها « الياوران » ، وتستقبلها « سارة » فى تبسم ، ويبدو على « إيجون » الجفاء والغلظة ، وهو يواجهها بأن حيل النساء لم تعد تثير نأمة فى نفسه . ثم يسأل « سارة » عنها ، فتقول :

سارة : إنها عذراء يا مولاى .. لم تخلق بعد عذراء أحيطت بالغزل والاشتهاء عن قرب مثلها ، ومع ذلك فإن بكارتها لم تمس . .

ولديها شهادة من الحاخام الأكبر بذلك !.. أتحب أن ترى بعينيك ؟.. إن الأخريات ينحلن وتجف أعوادهن جوعا ، أما هي فتزداد نموا ، وما أراها إلا تتغذى على أبهة الزمن وأمجاده !

إيجون : لدينا الكثير من هذه نقدمها إليها .. ما هذا العبير الذى يحف بك ، أهو عطر يهوذا الملكى ؟

سارة : لا يا مولاى .. هذا عبير مصرف المدينة . لقد أنبأتك بأنها غنية ، ومع ذلك فإنها تقف أمامك أسيرة ، كسيرة ، يفتتها الخوف .. انظر كيف تقف متيبسة ، شاحبة !

إيجون : كلمة أخرى وآمر بطردك يا سارة ! (**يلتفت إلى جوديث**) ما الذى أتى بك إلى سرادق يا عزيزتى ؟

جوديث : أحببت أن أرى ملكا عظيما .. وجها لوجه !

إيجون : (**يسألها متهكما**) فهل ترينني كما تصورتنى ؟

جوديث : (**تجيب**) لقد جئت قانطة ، فإذا بى أصبح على أمل .. ففى أسلوبك فى الحديث ما يبعث الأمل .. إننى ألمس تحت نبرات الحاكم الخشنة ، نوعا من حب المرح .. ثم إن فيك فضولا يشجعنى !

إيجون : حذار من تصوراتك يا طفلتى ، فلقد قطع هولوفيرن على نفسه ألف وعد فى حياته ، ولكنه لم يتقيد بواحد منها قط !.. تكلمى يا فتاة .. باسم من قدمت إلينا !

جوديث : جئت من تلقاء نفسى .. أتعرف الفرق بين الفتاة والمرأة ؟

إيجون : الفتاة هى تلك كانتها سارة منذ عهد بعيد !

جوديث : أفتعرف ما قيمة أن تكون الأنثى فتاة ؟

إيجون : كل امرئ يعرف هذا ، فيما عدا الفتيات أنفسهن ، إذ أن الفتاة لا تكاد تعرفه حتى تكون قد أصبحت امرأة .

جوديث : إذن فأنا شاذة على هذه القاعدة ، لأننى أعرف ما أنا عليه ، دون أن أصبح امرأة !

إيجون : لنقل إنك لم تصبحى امرأة بعد ، ولكنك على استعداد للعمل الجليل الذى يجعلك واحدة منهن .

جوديث : إن البقاء فتاة ، معناه الانصياع لقوة عمياء تفرض الألم ، والشقاء ، والعذاب .. كل ذلك بأمل الالتقاء بالعظمة ممثلة فى كيان شخص آخر !.. هولوفرن ، ألا اعف عن أهل إسرائيل ، فيمجد اسمك بينهم إلى الأبد !

ويظهر « إيجون » ابتهاره ، ويقول :

إيجون : ثم إننى لا أحب النساء كثيرا

فتقول سارة :

سارة : سترجع عن مسلكك هذا الليلة ..

فيغتاظ «إيجون» ويأمر بأن تساط ، ولكنها تستغفره . فيدع مصيرها لجوديت كى تبت فيه ، فتضرع القوادة إلى الفتاة ، ولكن هذه تبقى جامدة ..

* * *

ويعفو إيجون أخيرا عن سارة ، بينما يقول أوتا :

أوتا : حذار يا مولاى .. لو أنك عانقت هذه العذراء لأنجبت

نسلا جديدا من المرابين والأنبياء !

إيجون : صه يا أوتا !.. تكلمي يا جوديث ! ألا ترين أننا أطلنا فى تمثيل هذه المهزلة ؟

جوديث : مهزلة ؟!

إيجون : لقد كنت أعرف أنك قادمة .. سمعت ذلك من أفواه أولئك الشبان الذين كانوا يهتفون باسمك ونحن نمزقهم إربا إربا .. لكأن جيش إسرائيل بأسره لم يقم إلا للدفاع عن هذا الاسم !.. على أننى لم أكن مبتكر الخرافة التى تقول إنك تنقذين اليهود بمجيئك إلى هنا .. ومن المحتمل أن لا نهاية لهذه الحرب إلا بنزال بيني وبينك ، وها نحن الاثنان وجها لوجه !.. لقد انتهت الحرب ، فعودى حرة إلى بلدك . إنك جد جذابة ، ولكننا لا نستمرئ مفاتنك .. أفأنا مخطئ إذ أرى أن فى وسعك أن تهزمى غريمك ؟ إذن فقربى وجهك من وجهى ، واطبعى قبلة على جبينى ، لأرى ما إذا كانت لديك الجرأة !

وتقترب جوديث فتطبع قبلة على جبينه . ثم تمسك به فجأة ، وتطبع قبلات حارة على شفتيه .. وتتصاعد ضحكات السخرية ، فترفع جوديث يدها بخنجر ، ويصيح « إيجون » طالبا إقصاءها ، ويترك مصيرها لحارس أسود لينال متعته منها . ولكن العبد يرفض أوامره ، فيأمر « إيجون » بقتله .. وإذ ذاك تنفرج الستائر ، ويظهر هولوفيرن فيأمر بالقبض على « سارة » وقتلها .. وتستعطفه المرأة ، فيقول :

هولوفيرن: إذن فلنبدأ المهزلة من جديد .. سنسأل الشابة ما إذا كانت تعفو عنك !

ومرة أخرى تضرع القوادة لجوديث ، ولكن هذه لا تحير جوابا . فيأمر الملك بإعدام « سارة » ، وإذ ذاك تصيح هذه :

سارة : أتظن أن بوسعك القضاء علينا ؟.. ستعيش إسرائيل بالرغم منك ، وسيأتى المسيح ويخلصنا . ولن يكون هذا بسبب الغنية الحمقاء التى تمشى فى الأرض مباهية بأنها عذراء ، وإنما بسببى أنا .. سارة ، قوادة العاهرات !.. خذ المدينة ، ولكنك لن تقتل يهودها ، لأننى ظللت الأسابيع الطوال أهربهم إلى التلال فى جنح الظلام .

هولوفيرن: يا للمسكينة !.. لقد كنت أرسل فرسانى فى كل صباح ليتعقبوا اليهود ويقتلوهم !

وتلقى « سارة » بنفسها على الملك ، ولكن الحراس يجرونها .. ويخرج الجميع ، فيبقى هولوفيرن وجوديث وحدهما ، ويتأمل الملك الفتاة ، ثم يقول :

هولوفيرن: من أى بقاع الأرض جاءت هذه المرأة .. أكمل النساء ؟

جوديث : من ساحة قتال ، يموت فيها الرجال !

هولوفيرن: إنك تختلفين عن الأخريات يا جوديث .. أكثر اختلافا مما كنت أتصور !

وتبدى جوديث اشمئزازها من نفسها بعد الذى فعلته مع إيجون ، فيقول الملك :

هولوفيرن: امسحى طلاء الشفاه عن ركن فمك ، ليختفى أثر إيجون عن وجهك .

جوديث : أتظن أننى سأقوى على أن أظهر بوجهى للعالم بعد الذى فعله الله بى ؟.. لقد لطخت بالعار !.. ثم إن أحدا لن يمحو القبلة الزائفة التى ساقها الله لى !

هولوفيرن: (يطبع على وجهها قبلة خفيفة) ها قد تطهر الوجه .. لكأنما محيت عنه آثار قبلات الآخرين من أصدقائك !.. إن الغضب هو خير ما يخلع على وجه المرأة مظهر البكارة المهتاجة ، ويكشف سرها .

جوديث : وما سرى ؟

هولوفيرن: إنه السر الكامن خلف هاتين العينين الباردتين ، الجامدتين .. إنه العذوبة !.. الحلاوة !

جوديث : ألم تشعر بالخنجر تحت غلالتى ؟

هولوفيرن: كأنه جزء من جسمك .. الجزء الوحيد منه الذى يتمنى لى الأذى ! أما باقى الأجزاء فيسودها الحب !.. إن فى العمر فترات لا يجد فيها المرء موطئا لقدمه إلا فى اللهو العابث الفارغ .. أفهذا ما جئت تنشدينه عندى ؟

جوديث : إن الموطئ الوحيد لنفسى الآن ، هو حيث أستطيع أن أحقرها .. أفتظن أن إسرائيل ، والله نفسه ، كانا يتملقاننى عشرين عاما ليلقيا بى إلى مثل هذا الشرك الذى نصبه لى إيجون ؟.. إن جسمى وروحى مضرجان بالعار !

هولوفيرن: لقد محونا هذا وفرغنا منه !.. حدثيني عن إلٰهك ، فطالما طاب لى الحديث عن الآلهة الضعاف ، الذين تعتمد ألوهيتهم على ما يستطيع البشر أن يمارسوه من حب !.. وأبناء جنسك ؟.. ألم تعديهم حين تركتهم بأنك ستعملين على خلاصهم ؟.. إنهم ما زالوا يصرخون باسمك !

جوديث : لكأنما انقضت ألف عام على ذلك .. لم أعد أفقه لغتهم ، بل إننى لأشعر بالعار لأننى تكلمت بها يوما .. لقد سئمت الترانيم التى تقحم الله فى كل كلمة .. لقد سئمت الكلمات ، فلن أتكلم !

هولوفيرن: بل يجب أن تتكلمى .. ليس ثمة ما تخافينه ما دمت فى سرادق .. إنك لتفهمين جيدا .. لقد بدأت تحدسين أين أنت .

جوديث : لكأننى فى جزيرة .. فى عراء .. فى جوف غابة !

هولوفيرن: أترين ؟ لقد كنت طيلة الوقت تدركين أن هذا مكان لا وجود فيه لشيء يسمى الله !.. هذه الياردات المربعة الثلاثون هى أحد الأركان النادرة فى الحياة ، التى يكون البشر فيها أحرارا طلقاء !.. إن عالمنا المسكين موبوء بالعبادات يا جوديث ، ولكن لا تزال ثمة حدود لا تتجاوزها هذه العبادات ، وهنا أحد هذه الحدود .. هنا لا حاجة بك إلى الصلاة أو الترنم .. أرى أنك قد بدأت تعرفين من أنا !

جوديث : ومن تكون ؟

هولوفيرن: أنا الملك الوحيد الذى يجرؤ — فى هذه الدنيا الموبوءة بفكرة الله ! — على أن يكون إنسانا .. رجلا ! أنا رجل هذه الدنيا .. صديق الطبيعة وعدو الله !.. تصورى عذوبة الحياة إذا ما تحررت من المخاوف ، ولم تعد بك حاجة للصلاة ! تصورى كيف تصبح الحياة إذا كان الرجل بريئا حقا !

جوديث : إذن فأنت تعرض علىّ البراءة ؟

هولوفيرن: أعرض عليك الليلة — وطالما ظللت راغبة — نعمة البساطة التامة وما يرافقها من طمأنينة .. أقدم لك « المتعة » يا جوديث ، وإنها لكلمة تجعل صورة الله تتلاشى !

جوديث : إن له وسائله للعودة سريعا .. أفلا يحسن بنا أن نسرع ؟!

هولوفيرن: نسرع ؟.. أتظنين أن هناك منظرا أحب من منظر امرأة تتجرد من الاعتقاد بوجود الله ، ومع ذلك فإنها تبقى مكتسية .. كساؤها الحرية التى عثرت عليها حديثا !.. ما أجملك يا جوديث !.. الواقع أن جسدك بأسره ينادينى . ما الذى تبغين ؟

جوديث : أريد أن أفقد نفسى !

هولوفيرن: جسمك يقول هذا ، ولكن لهجته أرق !

جوديث : إذن فلن أنصت إلى جسدى .

هولوفيرن: إن جسدك ينبئنى بأنه مل وسئم ، وسيهوى إلى الأرض متهالكا ما لم يتلقه رجل وييسر له الرقاد المريح !.. إن جسدك

يريد أن يصبح إلٰها وربا !

* * *

وهنا يقبل « أوتا » معلنا أن « جوديث » بالباب ، فتبدو الحيرة على هولوفيرن ، ولا تلبث أن تلج « سوسانا » . ويثور بين المرأتين جدال محتدم ، تأبى خلاله سوسانا أن تنصرف دون جوديث . ويسأل هولوفيرن هذه :

هولوفيرن : ما الذى تبغيه ؟

فتجيب الفتاة :

جوديث : إنها تريد أن تنقذنى !

ويلتفت إلى المومس متسائلا :

هولوفيرن : وهل هى فى خطر ؟

سوسانا : أجل ، ولكنه ليس الخطر الذى كنت أتوقعه !

جوديث : لعلك ظننت أنك ستجدينني جاثية على ركبتى أصرخ ضارعة أمام وحش ملتح !

سوسانا : لم أكن أتوقع أن أعكر صفو موقف غرامى !.. ما هكذا يتصور أهل المدينة المنظر .. إنهم يتمثلون جوديث راكعة تتوسل إلى وحش . ولكن .. من ذا الذى يقف أمامها ؟.. إنه أول رجل حرك شعور جوديث . لقد أوفدها الله إلى هنا ، فإذا الرجل يستبقيها هنا .. ألا أنقذه يا هولوفيرن ؟

ويتساءل الملك فى دهشة :

هولوفيرن : وما هذا الذى أنقذه ؟

فتقول سوسانا :

سوسانا : شرف الدنيا ..

هولوفيرن : (فيراجعها قائلا) تقصدين شرف جوديث ؟
وإذ ذاك تقول :

سوسانا : الاثنان سواء .. اليوم !

هولوفيرن : يا سيدتى العزيزة .. لسوف تكون هناك كثيرات يحتللن مكان جوديث ، فليس من شيء يتناسخ ويتجدد بسرعة قدر العذارى !

سوسانا : لقد جئت لأنقذها .

جوديث : ها هو ذا الله يكشف سرهـــــا .. إنها تحسدنى على هولوفيرن .. ها هى ذى غريمتك يا هولوفيرن ، فإن كنت راغبا فىّ ، فاطردها من هنا .

وتروح المومس تتوسل إلى الملك أن ينقذ جوديث من نفسها ، قائلة :

سوسانا : لقد أبصرت نفسها فجأة عارية ، مجردة من القداسة ، فإذا بها تسعى إلى القضاء على نفسها ! ..(وتهيب بالفتاة) : تذكرى إسرائيل !

جوديث : إسرائيل !.. كل ما يهم إسرائيل هو أن جوديث جاءت إلى هولوفيرن ، وهذه غاية واجبها نحو قومها والله والأنبياء .. ومن هذه النقطة ، يعمل القدر بمنأى عن قدرة جوديث ، فليس فى وسع هولوفيرن ، ولا جوديث المسكينة ، أن يفعلا شيئا .. إن الله لا يهتم إلا بالمظهر ، ولا شأن له

بالتفصيلات !.. إن الله يطلب منا أن نرتدى لباس الضحايا ، أما خلف هذا المظهر ، فإنه يتركنا أحرارا فى أن نرضى رغباتنا ، وأحط شهواتنا !.. إن أي فرد فى المدينة خليق بأن يعرف الفرق بين هولوفيرن وخادمه .. وهذا ما لم تستطعه القديسة جوديث ، لأن الله أراد أن يقضى عليها ، ولكننى لن أدعه يفعل ، بل سأقضى على نفسى بنفسى .

وتخرج سوسانا وقد أيقنت أن جوديث اختارت هولوفيرن دون الله .. ويهتف هولوفيرن :

هولوفيرن : إلى أحضانى أيتها اليهودية !

جوديث : هذه الإهانة تجعل اليهودية على قدم المساواة معك .. الليلة !

هولوفيرن : إنك لا تدرين ما تعنيه كلمة « يهودية » عندنا : الجشع ، والفقر ، والدم الذى ينبض بالخوف أشد مما ينبض بالشهوة !

جوديث : إنها تعنى شيئا آخر .. فلا تعرف قوة العناق سوى اليهودية !

هولوفيرن : الآن ، لن تقتلى نفسك .. فليس الطهر إلا مجرد كلمة !

جوديث : ولكننى لست طاهرة .. أفتظن أن أية عذراء كانت تجتاز ميدان المعركة وتأتى وحيدة لتواجه المجهول ؟.. لقد منحت نفسى للرجل الذى أحب ، قبل أن أغادر المدينة !

هولوفيرن : إنك لم تحبى أحدا على الإطلاق . ثم إن النساء اللاتى على

شاكلتك يأنفن من أن يمنحن أنفسهن لمجرد الحب .. إذا كان هذا المنح للمرة الأولى ، على الأقل . إنك تؤثرين أن تؤخذى قسرا .. لن يدهشنى منك شىء . إن المرأة مخلوق اكتشف طبيعة نفسه ، أما أنت فلا تزالين تبحثين عن نفسك ، ولهذا فأنت عذراء ، ولن تعرفى حقيقة نفسك إلا صباح غد !.. لسوف تنهضين من فراشى بأول وليد لك .. بنفسك ! لسوف أنقذك من كل شىء يهدد بأن يسلب من حياتك معناها .

جوديث : ومن الحب أيضا فيما أحسب ؟.. لقد اكتمل عذابى ، وتحول صراعى مع هولوفيرن إلى مباراة غرامية بين جسدين ..

ويقبلها ، ثم يتساءل :

هولوفيرن : هل حلمت كثيرا بهذه اللحظة ؟.وإذ تقول :

جوديث : أجل ، لقد أنفقت عمرى كله أفكر فيها . ويسألها :

هولوفيرن : وهل لم تعودى راغبة فى إطالة الانتظار ؟.. هذه هى ذروة الحياة !

جوديث : بل هذا أدنى ما هبطت إليه !.. لقد تخلى الله عنى ، ولست أدرى علة ذلك . إنه يريد فتاة تضحى بنفسها ، ويدفعها نحو التضحية .. حتى إذا جاءت اللحظة ، لا يطيق الله التفصيلات ، فيشيح بوجهه !.. لقد كنت شديدة الزهو

بعفتى ، فإذا الله يريدنى على أن أرميها بعيدا ، فى غير مقابل على الإطلاق !

وبينما تتجرد جوديث من ثيابها فى غرفة داخلية بالسرادق ، تروح ترثى لنفسها ، وعفتها .. ولكنها لا تنفى عن نفسها أنها تسير إلى عارها راضية ، مغتبطة .. فقد أحبت هولوفيرن !.. لقد صوروه لها وحشا ، عملاقا ، فوجدته شابا .. رجلا .. إنسانا ، فلم تتمالك أن أحبته !

الفصل الثالث

ترفع الستار عن المكان السابق وقد جلست « سوسانا » وحيدة ، وعلى ركبتيها ثوب « جوديث » .. وعلى أريكة خشبية ، يستلقي حارس في غيبوبة من أثر الخمر . ويقبل « يوحنا » يسترق الخطى ، فتسأله المومس عما أتى به ، وكيف جاء . ويجيبها بأن سارة قد أفلتت وأنبأت إسرائيل بكل شيء ، فقام أبناؤها إلى سلاحهم لينتقموا من جوديث لأنها خانت ثقتهم .. واستطاعوا أن يتسللوا إلى المعسكر لأن سارة كانت قد أسكرت الحراس وخدرتهم ..

سوسانا : وماذا تراك فاعلا ؟

ويجيب بأنه سينجح فيما أخفقت فيه جوديث ، ثم يسألها أن تقصي الفتاة عن هولوفيرن ، فتقول :

سوسانا : ولكنهما نائمان !

يوحنا : نائمان !.. أتقولينها بهذا الهدوء ؟ إن جوديث هي الوحيدة من أبناء إسرائيل التي غمض لها جفن في الليلة الماضية !.. لقد كنت طيلة الليل أتمثل المنظر ، فتطن الأصوات في أذني .. لم تفتني أية دقيقة من الهول .. لا ، إنني أعرف جوديث .. أواه ، ما أتعسني !

ويصيح مناديا :

يوحنا : جوديث ! جوديث ! ، فتقبل هذه متشحة بعباءة هولوفيرن ، وتزيح الستار لتطل على الخارج تتعرف على الوقت ، وتقول :

جوديث : لا شك فى هذا .. نقطة من الدم فى الأفق ، وريح باردة تتخلل شعر جندى مسكين يرقد ميتاً على أرض المعركة ، وسماء تختلط فيها صفرة القبح بوهج الذهب .. وجوديث مفعمة بالعار والهناء .. إنه الفجر !

وتعود إلى الداخل ، فيسألها يوحنا عما إذا كانت قد استمتعت بليلتها ، ثم يردف :

يوحنا : كل إسرائيل تعرف أنك خنتها .

جوديث : يسرنى هذا ، فقد كنت أفكر فى إطلاعهم !

يوحنا : لقد رجموا خدمك ، وحرقوا بيتك ، وجرحوا عمك .. إنهم يلعنون اسمك .

جوديث : لم أعد أنتمى إليهم .

يوحنا : فلمن تنتمين إذن ؟.. إلى هولوفيرن ؟

جوديث : بل إلى الموت .. أشهر حسامك إن شئت ، فإننى متأهبة .

ولكنه يقول إن سيفه معد لهولوفيرن ، أما هى ، فسيتولى عقابها الكهنة والأنبياء — الذين يسعون فى موكب إلى المكان — لأنها غدرت بهم وخانت الله .

جوديث : من الذى كان خائنا : الله أم جوديث ؟

يوحنا : آه .. إن الهرة قد شحذت مخالبها .

جوديث : إذن فكن شجاعا مرة فى حياتك ، وقم بدور الصياد بدلا من دور الجندى الذى لا يعمل إلا بالأمر !

ويشهر يوحنا سيفه ويتسلل إلى الغرفة الداخلية ، حيث يوجد مخدع هولوفيرن . ولكنه لا يلبث أن يعود مبهوتا ، مأخوذا ، ثم يهتف :

يوحنا : هلا غفرت لنا يا جوديث ؟.. ألا قبلى الثوب الذى كانت ترتديه حين عبرت ساحة الحرب يا سوسانا .. مباركة كل شعرة فى رأسها !.. مبارك ذلك الحقد الذى يعمر قلب جوديث !.. سأجعل نفسى أهلا لك يا جوديث .

ويهرع إلى الغرفة الداخلية ، بينما تركع سوسانا أمام جوديث ، فتقول لها هذه :

جوديث : انهضى وإلا لطخت ثوبك .

وتسألها سوسانا : إذن فقد قتلته ؟

جوديث : كما يفعل السفاكون ! آمل أن تفهمى لماذا قتلته .

سوسانا : لقد أحالك الله إلى حقد مجسد .

جوديث : حقد ؟.. أتعتقدين حقا أننى كنت أستطيع — بالحقد — أن أقتله عند الفجر ، بعد سويعات من اتخاذه إياى زوجة ؟

سوسانا : إنى أومن بأن جوديث كانت وفية لرسالتها !

جوديث : بل الأمر بعيد عن هذا . إن اللحظة التى هوت فيها جوديث بطعنتها ، هى اللحظة التى نسيت فيها نفسها ، ونسيت من أين أقبلت ، ونسيت ما كان مفروضا عليها أن تفعل !.. وإذا كان قد قدر لى أن أعيش حتى أروى قصتى ، فأرجو أن

تكونى شاهدتى أمام قضاتى حين يصلون .. أريد أن أروى لهم أن قصة جوديث لم تنته إلى حقد ، فالواقع أن الذى مات فى الغرفة الأخرى إنما كان .. حب رجل وامرأة !.. إننى لم أنم سوى لحظات خيل إلىّ أنها ليل طويـــل ، ثم استيقظت . ولأول مرة فى حياتى ، رأيت نفسى فى الفجر إلى جوار رجل .. وكان كل شيء قد انتهى ، فلم أعد أتطلع إلا إلى فقدان هذا الرجل !.. لقد خطر لى أنه حتى إذا صار زوجى ورجلى ومـلك يدى أمـام اليهود والأشوريين ، فسوف يتركنى فى كل صباح ويعود إلى دنيا الأحياء والكفاح .. ومن ثم ، فلم تكن ثمة طريقة أخرى لأستبقيه لى وحدى على النحو الذى كان فى الليلة السالفة .. ألم يوح إليك يوما مرأى جسد نائم إلى جوارك ، بأن القتل قد يكون أكثر ألوان الحب حنانا ودواما ؟!

سوسانا : ولكن جوديث ستظل على مر القرون معروفة فى التاريخ بأنها العذراء التى اختارها الله لاغتيال رجل كانت تكرهه ، لأنه عدو قومها !

جوديث : لن يكون هذا مطلقا . سأخبرهم بكل شيء !

ويقبل إذ ذاك يواقيم وبعض الأنبياء ، فيبادرونها بالتمجيد والتقديس ، إذ كان « يوحنا » قد انطلق حاملا رأس هولوفيرن على ذؤابة سيفه ، وراح يعلن أن جوديث قتلت الجبار ، مما أشاع الفرقة والهلع فى قلوب جنوده ، وبث الجرأة فى قلوب اليهود . وتحاول « جوديث » أن توقف

To: www.al-mostafa.com

سيل المديح ، لتعلن الحقيقة ، ولكن يواقيم يهيب بها :

يواقيم : صه يا فتاة .. غير أنها تصيح :

جوديث : أكاذيب .. خرافات !..

ويمضى الأنبياء فى الترنم بمزاميرهم متغنين بالحقد الذى كان يملأ قلب جوديث

ويقول أحدهم : وأرقدها الطاغية عارية ..

ويرد آخر : ولكن الله ستر عريها .

فتصيح : هذا غير حقيقى !..

ويهتف المترنمون : ولم يمسسها .. لم يمسسها .

جوديث : (**تصيح**) بل امتلكها !.. وكانت مليئة بالحب له ، حتى لم يعد فى قلبها مكان لأى أحد .. ولا لله !.. دعونى أفضى بالحقيقة . لقد ضاجعت هذه اليهودية هولوفيرن ، واستمتعت به !

وتتدخل سوسانا ، زاعمة أنها هى التى نامت محل جوديث وأنها هى التى اعتدى عليها الملك ، محاولة بذلك أن تحفظ للفتاة سمعتها الطاهرة ، ولكن جوديث تكذبها .

فيصيح الأنبياء : صه يا جوديث !.

يواقيم : إنك تقضين علينا يا جوديث !

جوديث : (**ماضية فى حديثها**) كانت تنشد اللذة على ذاك السرير ، وقد فازت باللذة !

الأنبياء : (**نادبين**) قضى علينا بالضياع .. قضت علينا الفتاة !

ويتنحى يواقيم بجوديث بعيدا عن الموجودين ، ويروح يساومها لكى تمسك لسانها عن ذكر الحقيقة قائلا

يواقيم : إن أتفه زلة من لسانك تحرم القوم معجزتهم !..

ويمنيها بقصر على حافة البحيرة ، تحف به المتنزهات والأشجار ، وله شاطئه المنعزل الذى لا يقتحمه عليها أحد .. فتقول :

جوديث : أتظننى أقنع بهذا ؟.. إنه الشيء الذى يهبه الرجل لعشيقة لم تعد تصلح للعشق . أما أنا فما زلت فى العشرين !.. لقد قتلت رجلا نيابة عن غيرى ، فإذا الله يتلوى غيرة منى !.. أكاد أشعر به حوالى ، يحاول أن يختطف الفضل لنفسه !.. إنه قد يهبنى قصرا أعيش فيه محوطة بهالة من المجد ، ولكننى أعرف الله .. إنه لن يلبث أن ينتزع هذا الجزاء منى فيما بعد !

أحد الأنبياء : إن لصبرنا حدا يا فتاة !

جوديث : إذن فافقدوا صبركم .. إن الله لا يحفل بشيء . ما شعرت لحظة بوجوده طيلة الليلة السالفة . انتظرته ليحيلنى إلى ملاك ، فلم يفعل .. ومع ذلك ، فقد تمت المعجزة التى كنتم تريدونها .. ولكنها كانت خدعة .. تلك المعجزة !

يواقيم : لا تكونى عنيدة يا جوديث .. إن فى قصتك غراما ، ولكن هذا الفصل يمكن أن ينسب إلى سوسانا .. يجب أن تقولى ما ذكرنا لك ، وإلا قبضت على عنقك لأعتصر الحقيقة ..

جوديث : الحقيقة ..

يواقيم : أجل .. الحقيقة هى أكذوبة الله للدنيا !

وتشتد الحيرة بجوديث ، وينهكها الصراع ، فتقول — فى إعياء — ليوحنا الذى أقبل بدوره لإقناعها :

جوديث : لا تزعج نفسك .. سأذهب معكم إلى المدينة .

أحد الأنبياء : حيث تثيرين تلك الفضيحة ؟.. لا ، لن نبرح السرادق حتى نسوى المسألة ..

يواقيم : إن لنا شروطا ، لنحمي أنفسنا ضد أى انتكاس .. ستعيشين فى معبد ، لا ترين فيه صديقا ولا أهلا .. وإذا كانت قد بقيت فى حلقك كلمات عن الحب واللذة ، فابصقيها الآن ، قبل أن تخلدى إلى صمت أبدى !

جوديث : إن حلقى جاف .. وجسدى هو الآخر جاف ! لقد قبلت !

أحد الأنبياء : المجد لجوديث .. لقد نجت إسرائيل !

جوديث : ادعوا الدنيا كى تفسح الطريق للقديسة جوديث !

ويخرج الأنبياء يترنمون ، وخلفهم جوديث ويواقيم .. ويركع يوحنا ، بينما تهبط الستار .

رقم الإيداع ٣١٨٥ / ١٩٩١
الترقيم الدولى 1 - 0651 - 11 - 977

حلمي مراد يقدم كنوز كتب التراث

١ ـ رسالة الغفران :

١ ـ رسالة الغفران
٢ ـ الكوميديا الإلهية
٣ ـ جمهورية أفلاطون

٢ ـ الأمير :

١ ـ الأمير
٢ ـ يوتوبيا
٣ ـ المدينة الفاضلة
٤ ـ نظرية التطور
٥ ـ أصل الإنسان

٣ ـ العقد الاجتماعى

١ ـ العقد الاجتماعى
٢ ـ الإلياذة
٣ ـ الأوديسة
٤ ـ إميل

٤ ـ سالومى

١ ـ سالومى
٢ ـ المريض بالوهم
٣ ـ ترويض الزوج
٤ ـ سيرانو دى برجراك

٥ ـ جيوكندا

١ ـ جيوكندا
٢ ـ هرناني
٣ ـ الحب الآثم
٤ ـ الجنس الآلى
٥ ـ سر سيدة القصر
٦ ـ الأم

٦ ـ مدرسة الأرامل

١ ـ جوديث
٢ ـ الهاربة من الفضيحة
٣ ـ رجل الأقدار
٤ ـ كاليجولا
٥ ـ مدرسة الأرامل

٧ ـ ألكسندر دوماس

١ ـ ألكسندر دوماس
٢ ـ لويس باستير
٣ ـ تشايكوفسكى
٤ ـ مايكل أنجلو
٥ ـ مختار
٦ ـ نيتشة
٧ ـ ماركونى

٨ ـ مروحة اللادى وندرمير

١ ـ مروحة اللادى وندرمير
٢ ـ خطايا الحب
٣ ـ عذراء الغابة
٤ ـ العدالة
٥ ـ البطل لوسيد
٦ ـ الحياة نفاق

Bibliotheca Alexandrina
0293940

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي ـ الفجالة

الثمن ٢٠٠ قرش

To: www.al-mostafa.com